
عبد الرحمن صدقي
ألوان من الحب

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوى

جمعية د /عبد الرحمن بدوى للإبداع الثقافي

القاهرة

عبد الرحمن صدقي

ألوان من الحب



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مقدمة

مهما يبلغ من صدق القول بأن الحب فى أصوله إن هو إلا قوة نزوعية من شهوات الغرائز ، فإنه مِن تحرّى الصدق فى القول أيضاً أن يضاف إلى ذلك أن الحب قد تجاوز فى الإنسان طوره البدائى ، وأنه لم يَعُد مجرد حاجة جنسية ، بل تعدّاها إلى حال معقّدة من العاطفة الوجدانية تنطوى على معان خلقية وروحية . وقد جاء هذا التطور — كما هو معلوم — من أن الإنسان كلما ابتعد عن حالة الفطرة الأولى فرض الاجتماعُ عليه من النظم والشرائع والآداب ما يجعله فى نزاع مع ما ركّب فى طينته من الطباع ، فإذا اختلافٌ فى الأمزجة من أثر التفاعل لا ضابط له ولا آخر ، وإذا بالنفس الانسانية تتعدد فلا تتشابه اثنتان ، بل تتناقض النفس الواحدة حتى لتتنكر نفسها فى بعض الأحيان .

هذا المعنى هو الذى ينتظم هذه المجموعة من قصص الحب ، لأشهر أعلام القصة وأساطينها فى الغرب . فكلها عن الحب ، ولكن شتان بين حب وحب . والاختلاف هنا فى الكمّ والكيف ، وفى الطبيعة والمزاج ، وفى المقدمات والمعقبات ، وفى أنماط الأفراد ومراتب الجماعات ، وفى ظروف الحياة الاجتماعية وخصائص الأجناس البشرية ، وما إلى ذلك من الاختلافات الواقعية .

ثم فوق هذا جميعه يأتى الاختلاف الفنى فى صناعة القصة ، وهو الاختلاف فى أسلوب العرض وطريقة التناول بين قاصّ وقاصّ . فلسوف يلمس القارىء هنا بعض الفوارق بين القصصى الروسى والأسبانى والفرنسى عامة ، ثم الفوارق الخاصة بين القاصّين فى الأمة الواحدة .

فالذى يشترك فيه الروس مثلا هو ذلك الفيض من الإنسانية والعطف والرحمة الخاشعة يتسع لكل حىّ مهما يكن من الهوان ، كما يتجلى فى قصة « حبيبها » وفى قصة « العضاض » على الخصوص — فضلا على انفرادهم بتحليل الحالات النفسية الشاذة وأعراض الأعصاب المريضة الملتاثة . ثم بعد ذلك نجد أفذاذهم مختلفين فيما بينهم فى استقلال كلٍّ بطريقته ونظرته إلى الأشياء على نحو خاص به . ويظهر ذلك واضحاً فى تلك الطلاوة التى يصور بها تشيكوف فى قصة « القبلة » مبلغ ما فى حياة الناس — علية ودهماء — من الغثاثة والتفاهة ، على خلاف ما يعمد إليه أندرييف فى قصة « الصمت » من طريقة التصوير بلمسات عريضة قوية تبرز الأنوار والظلال بأكبر أحجامها وأبلغ تباينها ، محتفظاً مع الهول الذى يرسمه برصانة الفنان وتوازنه .

ثم تأتى القصة الفرنسية القصيرة ، وهى مهما ذهب بها الخيال ، تقوم على الواقع وتغذوها المشاهدة . والفرق واضح مع هذا أيضاً بين بلزاك وما فيه من فحولة قوية ، وبين موبسان وما يضطرب فى نفسه من شاعرية . ونزيد على ذلك أن موباسان — إمام القصة القصيرة غير مدافع — وإن

يكن ينقل الأشياء فى ذاتها كما يراها الراءون ، يجلو لنا بأروع الجلاء مدلولها الأعم ومعناها المكنون . وليس هذا منه عن سبحات فلسفية أو شطحات خيالية ، و إنما الأمر كله أنه يرى الأشياء حق الرؤية . وأما أسلوبه الكتابى فسهل متدفق فيه حماسة طبيعية ووَقْدَة حسية

ومن قبل أولئك ، قصة « لونان من الحب » التى استفتحنا بها المجموعة ، وهى للكاتب الأسبانى إبانيز ، من الآحاد المشهورين الذين يفخر بهم القرن العشرون لترفعهم عن التبذل الإباحى مرضاة للأذواق العامية . وهو يمتاز بعمق إحساسه بالحياة ، وصدق تحليله لألوان العواطف الإنسانية مهما دقت فروقها وخفيت مساربها ، مع وضوح نظرته ودقة ملاحظته ، والإحاطة بالموضوع من غير فضول ، ثم إفراغه لهذا كله فى قالب أنيق المعرض حىّ الأوصاف

وأخيراً تجىء فى الذيل قصة « بلقيس ملكة سبأ » لمترجم المجموعة وكاتب هذه الكلمات . وهى محاولته الأولى فى فن القصة ، ومن يدرى لعلها الأخيرة . وليس فى نشرها بين قصص هؤلاء الأعلام دعوى يدّعيها ، و إنما هى نفسه لم تطاوعه على أن يطويها

وما أظن القارىء — بعد الذى تقدم — فى حاجة إلى الإفاضة ، وبخاصة ونحن بصدد « ألوان من الحب » . وهو موضوع لا يناسبه فيما عدا الشعر من فنون التعبير إلا القصة .

عبد الرحمن صدقى

لونان من الحب

« للروائى الاسبانى بلاسكو ابانيز »

ظل أهل باريس كلهم ، ممن يرتادون حفلات الشاى الراقصة أو غير الراقصة ، التى يقنع المجتمعون فيها باغتياب الناس والخوض فى شؤونهم — كل هؤلاء ظلوا يسمرون أسبوعاً كاملاً و يعيدون و يبدئون فى موضوع زواج « موريس دلفور » وريث مصانع دلفور وشركائه (و يبلغ رأس مالها الملايين) بالحسناء « أوديت مرساك » ابنة أخى علم من أعلام النواب إن يكن قد خَفَت اليوم اسمه فانه كان مرشحا مرتين لرياسة الجمهورية .

وليس بالحدث النادر فى الحياة الباريسية زواج ملك من ملوك الصناعة بأميرة من أميرات الجمهورية ، بل قلما يكون فى هذا مؤونة لحديث نصف ساعة ، إلا أن لهذين العروسين شأنا وأى شأن !

أما هو فكان حلم النساء ، يتراءى لهن مثالاً لكل ألوان الأناقة ومظهرا حيا للمعارف البشرية جميعها : كأس الشرف فى أرقى مسابقات الخيل ، كأس الشرف فيما لا يحصى عديده من مباريات السيف وصيد الحمام ، كأس الشرف فى سباق السيارات الأعظم بين باريس ونابولى ، وأمثال ذلك ، حتى أخذت غرفة مكتبه تظهر شيئا فشيئا بمظهر حجرة الأكل

لـكثرة ما يشاهد الإنسان فيها من أكواب الشرف مصفوفة على المناضد وسائر الأثاث .

ثم إنه إلى هذه الانتصارات فى فن الألعاب والرياضة له نصيبٌ من جاه رجل العلم ، فهو فى الآونة الحاضرة مهتم بالطيران ، يحلق بالطائرة كل أسبوع أو ما يقرب من ذلك ، وهو يعقد ما بين حاجبيه وتبين على وجهه سمات السابح فى الأفكار وغوامض الأسرار إذا ما تكلم متكلم فى مجلسه عن مسائل الآلات وما يتعلق بها .

وأما هى ، فهى عند صواحبها « أوديت » ، أوديت فريدة زمانها ، وهى عند سائر الناس « الآنسة مارساك » ، اسم شهير بارز فى كل ما يروى عن الأناقة ، وفى كل صحف الأزياء وفى كل الحفلات الافتتاحية . وكان أكابر الخياطين من ذوى الفكر والإبداع فى شارع « دى لابيه » يعتمدون على الآنسة مارساك إبان الحفلات الـكبرى فى الحياة الباريسية فى رفع شأن ما تلبسه من مبتدعات قرائحهم المتوقدة . فان قوامها الذى لا يضارعه قوام يدع الغوانى من الغيرة كاسفات متحسرات . هيفاء ، لا يزيد وزنها على الخمسين كيلو إلا قليلا . لها نحرٌ بلغ من الحسن غايته ، ترتسم فى إهابه الرقّاف عظمتا الترقوة الرشيقتان وكأنهما قاعدةٌ لعمود جيدها المستدقّ الرهيف . وتبين فى ظهرها العاجى لوحتا كتفيها مفصّلتين للعيان كأنهما جناحان ناجمان . وساقاها طويلتان مستويتان لا يكاد يُرى لها ربلة ، وهى تعرضهما فى طمأنينة غير محاذرة من الغواية والفتنة تحت حافة

ثوبها الحريرى القصير . كذلك سائر ما يكسو بدنَها من اللحم قد روعى فى توزيعه التقتير ، فلا يربو مقدار اللحم درهما عما يكفى لتلبيس العروق ، وتلطيف الحاد من حنايا الأضالع والأوصال . وجملة القول أنه جسمٌ يَصْدق نعتُه بـ « الهوائى » ، وإن شئت فهو ذريعة لملء الفراغ فى داخل الثياب اجتنابا لمشيها وحدها . . وهذا الكيان الحى الذى بلغ الغاية فى حسن السمت والشارة يعلوه وجهٌ جميل أسيل أطاله ذقنٌ مدبب ، وزانته حلقة صغيرة قرمزية هى فمها الدقيق البديع ، والتمعت فيه لوزتان هما عيناها الدعجاوان ، وتهدّلت على الأذنين لِمّتان كأنهما سالفتا فتى من منازلى الثيران الاسبان ، وقد صُفّفت غدائرها مجتمعة فى شكل البرج القائم تشتبك فيه الخصل العارية بخصل الغانية . إنها هى ربة الجمال العصرى كما قد يتصورها ويعبدها الفنان من واضعى رسوم الأزياء فى سبحات خياله المبدع وأحلامه العبقرية .

وفى مستهل عام ١٩١٤ نجمت لعبة جديدة وشاع أمرها وقامت قيامتها بين العلية والغطاريف من أهل باريس ، ومن أهل العواصم الأوربية والأمريكية التى تأتم بها وتقوم منها بمثابة الضواحى والأرباض . فكان أهل الأناقة الغطاريف يهزون أردافهم ليرقصوا رقصة « التانجو » . وفى طليعة هذه الخليقة التى ترقص التانجو كان موريس وكانت أوديت .

أما هو فقد اتصل سرا بأستاذ للرقص من أبناء الأرجنتين ، وآلى على نفسه أن لا ترى عيناه النجلاوان أنوار المدينة الساهرة إلا وقد حذق هذا

العلم الجديد حذقه لغيره من العلوم . وفى ذات ليلة من الليالى الزاهرة أقبل موريس ليجنى إعجابَ القوم، وهو فى حلبة الرقص تحت المصابيح الكهر بائية فى فندق من فنادق الشانز يليزيه ، يحرك قدميه فى حذائهما اللماع العالى الكعب ، و يهزّ قوامه المهضوم المحبوك فى سترته المحكمة ، و ينغض برأسه الجميل ، وشعرُه الجعد مرسل إلى الوراء كتلةً وضيئة كطلاء اللّكّ لامعة .

وأما هى فقد أثارت مثل هذا الإعجاب فى ناحية أخرى من المرقص . وكما يحس الكوكبان اقترابَهما و يتجاذبان ، كذلك كان موريس وأوديت يهفو كل منهما نحو الآخر و يتهافت عليه ، يحدوهما باعث لا يقاوَم من ائتلاف فى الطباع وامتزاج فى الشعور حتى لا شىء يفرق بينهما .

فهما منذ ذلك الحين يرقصان وكلٌّ منهما إنما يرقص للآخر . ولقد أصبحا لا يلقيان الانسجام المنشود بين ذراعى الغير . وكانا إذا تراقصا لم يهتكا بكلمة واحدة حجابَ الصمت المحفوف بالأسرار فى الرقص المقدس، بل كانت قوة روحهما جمعاء منصرفةً فى جد وتفكير إلى حركة أقدامهما و إلى تثنّى أعطافهما فى اهتزازات موزونة متوافقة ، وهما أشد ما يكونان شعوراً بأن حرمة رقصهما أبدَ الدهر رهينةٌ بأن يبقيا مدى الحياة شريكين.

وهكذا نما الحب بينهما ، وهكذا تم قرانهما . واستيقظت باريس بأسرها فى ذات صباح قبل موعد يقظتها المعهودة بساعتين لتشهد حفلة القران . وكان يزين الحفلة تشريف عواهل الصناعة أجمعين ، وعددٌ لا حصر له من رجالات السياسة أصدقاء عم العروس . وكان معلوماً علمَ

اليقين ما يجمع شمل العروسين من وشائج صبابةٍ وغرام ، كأطيب وأوثق ما روته الأساطير بين الأنام .

وقد سلك موريس مسلك العاشق الحقّ ، فودّع الوداع الذى ليس وراءه عودة تُرتجى سائرَ عشيقاته على اختلافهن ، وكلهن من كاهنات الفنون الرفيعة : التمثيل والغناء والرقص . لقد انتهى عهد الجهالات ، وحَسْبه منذ اليوم امرأته الصبية ودراساته العلمية الجدية .

أما هى فما برحت تنزع للمغازلة كذى قبل جرياً مع العادة ليس إلا ، ومن غير أن تسمح لأحد بالاجتراء المقتحم . و إنما حَسْبها منها أن تكون دواعى للإحساس بالخطر تزيد شعورَ زوجها بما صار إليه من السعادة والظفر .

وقد جعلوا مقر سعادتهم فى قصر دلفور ، وهو بناء فخم شيده أول مثرٍ من أصحاب الملايين فى الأسرة على مقربة من حدائق مونسو ، بين قصور أقرانه الممولين . وتطل الوجهة الخلفية من القصر على هذه الحدائق ، وقد اعتكفت الأرملة دلفور فى الطابق الأعلى بما بقى لها من أثاث البذخ القديم ، وتخلت عن بقية الدار لابنها وزوجته ليتسنى للعروس الشابة من غير عائق أن تشبع هواها الزخرفى فى زينة البيت ، فإذا بهذا المنزل العامر من قبل بالأثاث الأرجوانى المذهب والمقاعد الفخمة من طراز نابليون الثالث ، تطغى عليه نزواتُ الخيال وألوان المفارقات فى طراز مستحدث من الأثاث ، خليطٍ من البيزنطية والفارسية ، وهو بعدُ ربيب دور الفن فى ميونيخ الألمانية .

وكانت الأم دلفور متشحة دائماً بالسواد ، وهى أبداً رصينة مفكرة شأن من خبر الدنيا وعرف قيمتها ، وكانت تشهد — دون أن تبدو عليها بادية — ماتأتيه هذه الشابة الوافدة فى الزمن الأخير من ضروب البدوات والبدع : مهرجاناتٌ شرقية تقلب الدار الوادعة رأساً على عقب ، حفلات شايٍ راقصة ، وهى فى ثياب من غلائل الكتان الرقيق شفافةً ، ضيقة كالغمد ، موشّاة بأزهار كبيرة الحجم بارزة الطرز ، مزمومةً على عُرْيها وهزالها .

ولما كان ابنها مشغوفاً بأوديت يعبدها ، فقد اجتهدت الأم أن تلتمس العذر لزوجته الصغيرة فى جميع أهوائها ونزوات مزاجها : يا للبنيَّة المسكينة ، لقد نشأت من غير أمٍّ فعاشت كالغلام طليقة !

٢

وقامت الحرب . وكان من بوادر آثارها أن بدت أمارات الرعب فى عينى الغانية الشابة ، سيدة قصر دلفور الجديدة ، فهما متسعتا الحدقة مروعتا النظرة . أيمكن مثل هذا البلاء ! وفى الساعة التى يكون الإنسان فيها أشد ما يكون لهواً وانبساطاً .

أما الحماة فقد لاح عليها أنها كبرت ، وأنها قد خرجت من انقباضها عن العالم . وهذه نظرتها تستقر رصينة بطيئة على الأشخاص وعلى الأشياء ، كأنما تتعرّف عليها من جديد . وهى فى زمانها قد رأت الشىء الكثير ، وكان أول من بادلته كلمات الحب رجل الصناعة دلفور فى

عام ١٨٧٠ ، أثناء حصار باريس . ثم شهدت وهى عروس صبية مأساة حكم اللجنة الجمهورية العاثر فى فترة عمره القصير .

ودعى نجلها للسفر إلى الميدان فى الوقت الذى بدأت امرأته تعجب فيه بالرجل الجديد فى حلة الضابط الرسمية ، تنسجم عليه أجمل انسجام ، وتضاعف من رشاقته فى فتوة ورجولية . ولقد أراد أن يلتحق بالطيران ، إلا أن الطيران كان فى طور الطفولة فى أول نشوب الحرب ، فبقى فى المدفعية تبكيراً فى القيام بالخدمة .

ورغبت أوديت أيضاً فى أن تؤدى شيئاً لبلادها . وكانت صواحبها غاديات رائحات فى المستشفيات . فصحّت عزيمتها بحافز من الأريحية على التطوع ممرضة ، لأنها كانت شديدة الإعجاب بالحلة البيضاء ، والبرنس الأزرق ، وعصابة الرأس الناصعة . فهذا الرداء البسيط الجديد يلائم جمالها كل الملاءمة . وكانت لفرط هيامها بالظهور فى هذا الزى الأخير من الثياب تغادر المرضى أحياناً كثيرةً للطواف فى سيارتها متنزهة فى غاب بولونيا ، رافلةً فى الغلالة البيضاء المزدانة بالصليب الأحمر على الأردان والصدر .

أما الأرملة دلفور فكانت تقضى أيامها ولياليها فى المستشفى من غير أن تخلع ثوبها الأسود السرمدى .

على أنه للحرب كما لغيرها مباهجها ومتعها : فثمة حفلات الشاى المقصورة عليهن معشر النساء بمعزل عن محضر الرجال يضايقونهن ويرهقونهن بالمجاملات ، وهن فى هذه الحفلات متشحات جميعهن بالثياب البيض كأنهن الخادمات فى دور الحمامات ، ومن كل صوب تنعقد

حولهن نظرات الحسد ممن لا يرتدين زيهن . ثم هن يتسلين بحوك ملابس من شغل الإبرة للجنود ، مزهوات بما يبدو عليهن من قلة حذق هذه الأشغال ، شأنهن فى ذلك شأن العقيلات من العلية شَدَوْن عن الخادمة شيئاً من أشغال المنزل . وفى أثناء ذلك جميعه يأخذن فى الحديث :

— زوجى يحارب فى الألزاس . والمسيو دلفور ، فى أى الميادين هو ؟

وكان المسيو دلفور فى مكان ما فى ناحية البلچيك ، وكانت امرأته الجميلة تقصّ مغامراته وهى تدير من حولها نظرات اعتزازٍ وخيلاء : لقد نوّهت به النشرة العسكرية مرتين ! لقد أنعم عليه بوسام ! لقد منح شارة !

ولكن عدد الأبطال كان كثيراً كوابل المطر . وكانت أوديت تمتعض وهى تسمع غيرها من النساء يذكرن عن أزواجهن مثل ما تذكر .

آه ! ألا من سبيلٍ إلى التفوق !

وفى ذات يوم ريع قصر دلفور فى حدائق مونسو بنوبات شديدة من الانفعالات العصبية والنحيب ، مصحوبة باصطفاق الأبواب وتبويق السيارات ووفود من الأطباء . لقد جرح الملازم دلفور فى الميدان جروحا خطيرة من انفجار قنبلة . وأرادت أوديت أن تسافر على الفور لتسهر إلى جانب سرير زوجها . لكن هذا مستحيل ! فاسودت الدنيا فى ناظرها وودت لو تموت . ذلك على حين بقيت الأم ناضبة العينين ، تطرف بأجفانها ، وتعضّ شفتيها .

ولما أن عادت أوديت إلى الظهور فى المجتمعات الخاصة داخَلها شىء من الرضى ، فليس اليوم بين صواحبها من تجرؤ على مطاولتها والاقتياس

بها . لقد جُرح موريس ، وجرحه خطير ، والكل مشفقون على ما صار إليه هذا الزوج الفتان الذى ابتلته الحرب هذا البلاء الشديد .

وهوّن هذا الإعجابُ العام على أوديت جزعها ، فجعلت تألف شيئاً فشيئاً فكرة هذه الجروح الغامضة . أية جروح هى يا ترى ؟ تخيلت زوجها أعرج يظلع ، فى إحدى يديه عصًا و يده الأخرى تعتمد على ذراعها . ما أملحهما زوجين ! إن المستقبل ما فتىء يدخر لهما ساعات هناءةٍ طو يلة . لسوف ترعاه وتحبوه السعادة بحنان الأم الرؤوم ومناغاة الحبيبة .

وفى أصيل ذات يوم فى شارع رويال ، وقع بصرها على ملازم من الرتبة الثانية ، وهو جدّ يافعٍ يكاد يكون غلاماً ، يسير إلى جنب خطيبته ، وأحد كمىْ سترته متهدلٌ خاوٍ . موريس هو الآخر فقد ذراعه ، هى موقنة بذلك . وهذا هو السبب فى أن خطاباته المكتو بة على عجل ، الناطقة بسرورٍ موجع ، هى دائماً إملاء وليست بخط يده . ولكن ماذا يهم ؟ ستكون سندَ زوجها ، ستنوب ذراعُها عن ذراعه المفقودة . إنما أشوق ما يشوقها رؤ يةُ طلعته ، والتطلع إلى خيالها فى صفاء عينيه ، والتملى بنظرته الحلوة المداعبة الساخرة فى لطف . آه ! ما أشد حبها إياه .

وكان صواحبها يتلقينها دائماً مرددات نفس السؤال : « كيف حال الجريح ؟ » وهى تجيب راسخة اليقين : « فى تحسن مطرد ، وهو قادم قريباً إلى باريس . »

وتعاقبت الأيام والشهور . ووردت الخطابات تلو الخطابات ، وكلها مكتو بة بغير خطه ، إلا أنها إملاؤه . فقلقت الأم ، واستفهمت من

أصدقاء الأسرة الأقدمين ، وهم قوم من ذوى الرجاحة والرصانة فلا ريب يكاتمونها بعض الخبر :

— إن جروحه بليغة ، ولكن لا خطر عليه . تشجعى! المهم هو أن يعيش.

وفى ذات صباح هبّت أوديت من فراشها ، وقد أيقظتها بغتةً من نومها حركةُ اضطراب غير عادية فى القصر . فأزاحت ستار إحدى النوافذ ، فوقع بصرها فى خارج الباب الحديدى على سيارة مقفلة عليها شارات الصليب الأحمر ، ثم تبينت بصعوبة من خلال طنف الزجاج الممدود فوق الدرج الخارجى رهطاً من الناس صاعدين يحملون بين أيديهم شيئاً ملفوفاً يحتاطون له بألف احتياط ، وكأنه قطعة من الأثاث يُخشى عليها التلف ، فقفز قلبها فى صدرها : موريس ! !

وأفرغت عليها بعض الثياب ، وانطلقت من غير أن تستكمل هندامها راكضة تنحدر فى السلم ، إلى بهو فى الطابق الأدنى ، وحاول الخدم مذعورين راجفين منعها .

اقتحمت القاعة ، وفى الحال عرفت الرأس الموجع المسنود إلى وسائد الأريكة . هذا هو ، مشوهاً أفظع تشويه ، مخدّد الوجنتين بأخاديد متراكبة متشابكة من الندوب الزرقاء الكابية ... ولكنه هو .

لم تبق له غير عين واحدة . أما العين الأخرى فإن موضعها تواريه عصابةٌ سوداء بحجم محجرها الأجوف . ثم سرّحت أوديت طرفها فى صدره المستور تحت قماش سترته الزرقاء ، سترة الضابط القديمة . ولكن . . ولكن هنا تزلزت المرأة ومادت بها الأرض كمن صدم صدمة

فظيعة مفاجئة — فإذا بها قد صرخت . إن جسمه الجريح ينتهى هنا، بغير ذراعين و بغير ساقين . ما هو إلا جذعٌ أبتر ، بقى بفضل معجزات الجراحة ، خرقة ممزقة فى نهايتها رأسٌ حى .

وغمغم ذلك الفم — الأسود من حريق الحمم — فى ضراعة وذلة :
« أوديت ، أوديت ! » كأنما يلتمس الصفح عما حلّ به من بلاء .

ولكن أوديت كانت قد ولت مجفلة تدفع من طريقها الخدم المتجمعين أمام الباب ، وانطلقت على وجهها تركض فى أطباق المنزل العليا لا تعى ما تفعل ، مولولة كأشد ما ولولت امرأة فى مأساة إغريقية ، تصطدم بالأثاث والحيطان ، وتمزق شعرها المحلول ، وقد جُنّ جنونها من دهشة وفزع واشمئزاز .

وهذا المخلوق المشوه الممسوخ الخلقة زوجها ! وواجبٌ عليها البقاء إلى جانبه طوال حياتها !

ولم يزل يئن فى الطابق الأدنى ذلك الصوتُ الضارع الموجع مسترسلاً :
« أوديت ، أوديت ! »

واغرورقت بالدموع عينُه الوحيدة : الكل يهربون . حتى الخدم يتأملونه من بعيد ، ويحاول كل منهم الاختباء وراء زميله وهو متلهف على الهرب ، ويشرئب مع هذا بعنقه وعلى وجهه سيماء مبهمة من تطلع الفضول وانقباض النفور .

وكان القوم يتجنبون لمسه ، كأنهم منه بإزاء كتلة غروية تعافها النفوس ، بإزاء أخطبوط بُترت سواعده المتشعبة ، بإزاء مادة نخامية

لا قوام لها لفظتها الحرب . هذا صاحب الملايين الذى كان شديد الحب للحياة ، أيظل أبدَ الدهر على هامش الحياة ! لقد أحدثت بليتهُ فراغاً حوله ، حتى كلبه المحبوب يثن على قيد خطوات منه يقدّم رجلا و يؤخر أخرى ، كأنما هو نهب دوافع تتداول عليه دراكاً ، من ولاء لسيده وفزعٍ منه .

ولسوف يظل ما عاش على هذا المنوال . . . آه ، حبذا الموت ! الموت العاجل !

وعلى حين فجأة تنحى جمعُ الخدم . هذا شخصٌ يدخل القاعة . ولمح الجريحُ المشوه رأساً مجللا بالمشيب يتقدم نحوه ، ثم أحس على وجنتيه المخدودتين بالجراح لمسَ فمٍ يتمسح بهما ، و يلثم كالواله العصابةَ المسدلة على مقلته الجوفاء ، وأحس وَكْفَ دمعٍ سخين يبلل جيده ، وذراعين تطوقان فى شغف وحركة عصبيةٍ بدَنه الناقص التكوين كأنهما تطوقان طفلا .

وتصاعدت أنة :

— أماه !

— ولدى ! ولدى !



نزوة هوى

« للروائى الروسى الكسندر كوبرين »

كانت لجج من الأنوار الساطعة من ثريّات ثلاث محلّاة بقطعٍ مدلّاة من البلور الموشور تفيض على قاعة التمثيل فى دار الجامعة . وكان المسرح مزداناً بالأعلام والسعف والأفنان المورقة ، وفى الصدر منه معزفٌ كبير ملتمع الصِقال مفتوحٌ أعلاه . وكانت القاعة مزدحمة كل الازدحام كما هو ظاهر ، ومع ذلك فان الخلق ما برحوا يتدفقون من الأبواب زرافات . و إن المرء ليسدر طرفه وهو ينظر إلى هذه الجموع الجالسة نساء ورجالا ، من رءوس صلعاء ، وشعور مسترسلة فرعاء ، ومن السترات الرسمية السوداء المذيّلة ، والبذلات العسكرية ، وأثواب السيدات الزاهية ، ومن مراوح فاخرة تتحرك فى لطف ووناء فى أكفٍّ رقيقة مصونة فى قفازاتها البيضاء ومن حركات مستوفزة . . . وابتسامات غزلة خنثة لاهية .

و إذا بمغنٍّ وسيم ، تظهر عليه سيماء الاعتزاز بالنفس ، و إن شئت فقل الخيلاء ، يرقى إلى المسرح ويخطو إلى مقدمه ، وهو لابس سترة سوداء مذيّلة وفى صدره زهرة كبيرة متفتحة . وتبعه على أثره العازف المصاحب ، غيرملحوظٍ كأنه الشبح . وخيّم السكون على القاعة

غير أن عدداً من الطلاب المتطرفين الذين يحملون الشارات على صدور سترتهم ، وهم لجنة التنظيم كما هو جلي ظاهر ، كانوا فى الغرفة الخارجية المتخذة لإيداع المعاطف منهمكين يلغطون فى قلق وصبر نافد . فهم على لهف ينتظرون مقدم هنريت ديكروا المغنية الأولى للأوبرا الباريسية ، وقد نزلت على المدينة للغناء فى هذا الموسم من الشتاء . ومع أنها لاقت وفد الطلاب لقاء جميلا ظاهر الإيناس والبشاشة ، وأكدت لهم أنها تعتبر الغناء فى حفلتهم شرفا لها عظيما ، فقد حان الدور الذى كان مقرراً ظهورها فيه ، ولم تحضر بعد . أوتراها تخلت عنهم ؟ هذا هو الخاطر المقلق المكتوم الذى كان يدور فى أخلاد أعضاء لجنة الاحتفال وهم فى الغرفة الخارجية يكادون من البرد يجمدون . وقد ظلوا يختلفون إلى النافذة يلصقون وجوههم إلى زجاجها ويحدقون فى ظلمة هذه الليلة الشاتية .

وطرقت الأسماع قرقعة عجلةٍ تدرج مقتربة ، والتمع من النافذة مصباحاها الكبيران فهرولت اللجنة إلى الباب يتصادمون ويتدافعون . إنها بعينها « ديكروا » الفريدة . وتضوّع فى الغرفة المعدة لخلع المعاطف شذاً منها عبق . وابتسمت للطلاب ، وأومأت باشارة معنوية إلى حنجرتها الملفوفة بفراء السمور الثمين . وهى باشارتها تريد الإبانة عن السبب فى تأخرها ، إذ كانت لا تستطيع فتح فمها بالكلام لشدة الزمهرير بالغرفة وخشيتها الإصابة بالبرد .

وكان قد فات دور « ديكروا » من مدة ، وكان الناس الذين أخلفت

شوقهم إليها قد قطعوا الرجاء من انتظارها ، فجاء ظهورها على المسرح مفاجأة سعيدة غمرتهم ، فانطلقت مئات الحناجر الفتية ، وانطلق ضعف هذا العدد من الأكف القوية ، بتحيتها تحية طويلة يصم دويها الآذان ، حتى إنها شعرت — وهى التى ألفت عبادة الجمهور لها — بلذة غالبة متفززة من هذا الفيض من التمليق والإطراء .

وقفت على المسرح ، وانحنت إلى الأمام انحناءة خفيفة ، وتصفحت عيناها السوداوان الضحوكان الصفوف الأولى من المتفرجين . وكانت لابسة ثوباً من الأطلس أبيض لامعاً ، وكان صدارها منوطاً إلى كتفيها بشريط دقيق ، وتبدو منه ذراعان بديعتان ، وينم على صدر مشرئب ناهد ، وتطول فتحته فيكشف عن نحر باذخ ناصع كأنما هو منحوت من رخام حار .

وهدأ التصفيق مرات عدة ، ولكنها كانت فى كل مرة لا تكاد تدنو من المعزف حتى تتجدد موجة الحماسة فتردها إلى صدر المسرح لرد التحية . وفى آخر الأمر أبدت حركة احتجاج ورجاء ، وابتسمت ابتسامة ساحرة وأقبلت على المعزف . وخفت الهتاف والتصفيق شيئاً فشيئاً ، وأشخصت إليها القاعة كلها أنظارها ، متيمةً بها مفتونةً . وخيم السكون كأعمق مايكون ، ولكنه سكون الإصغاء الحى . وفى وسطه انبعثت طلائع نبراتٍ من لحن شجيٍّ من وضع « سان سانس » .

ووقف « الكساى صاميلوف » وهو طالب طب فى الفرقة الثانية على

مقربة من المسرح ، مستنداً إلى عمود من الأعمدة ، يصغى إلى الغناء وقد أطبق جفنيه نصف إطباق . وكان كلفهُ بالموسيقى عجيباً يكاد يكون مرضاً ، فليس يسمعها بأذنه وحدها ، بل يحسها بكل عصب من أعصابه وبكل نسيج من أنسجة كيانه . وكان جرْس هذا الصوت الجميل ينفذ إلى أعماق نفسه ويرتدّ رجفة حلوة تشيع فى سائر بدنه ، حتى ليخيل إليه من آونة لأخرى أن الصوت يغنى من داخله هو وفى الصميم من قلبه .

وكان ما يشفعون به كل استعادة من ضجة التهليل والتصفيق تؤذيه ، ويعروه منها شبه ألم جسدى ، فينظر إلى جمهرة السامعين نظرة المرتاع المحتج الراجى .

واستهلت ديكروا لحناً آخر جديداً . فعاد الكساى يسبل جفنيه ، ويستسلم لأمواج هذا الصوت الملعلع . وتمنى فى لهف لو أن هذا الغناء يستمر أبداً .

ولقد اضطروها إلى ترديد الغناء مرات ومرات ، ولم يسمحوا لها بمزايلة المسرح حتى أشارت إلى حنجرتها ، وابتسمت لهم ابتسامتها الحلوة ، وهزت رأسها فى احتجاج واعتذار . وأصعد « الكساى صاملوف » زفرة عميقة متقطعة كأنما استيقظ فى التو واللحظة من حلم جميل تراءى له فى اليقظة .

وعند هبوطه الدرج أحس فجأة بمن يلمس كتفه ، فالتفت فرأى « بيير » طالب الفقه وزميله الأسبق فى المدرسة ، وهو نجل مثرٍ مشهور من أصحاب الملايين ، وكان بيير متهللا تغلب عليه نشوة السعادة ، فطوق خصر

صاميلوف ، وضمه إليه فى مودة ، وهمس فى أذنه : « إنها رضيت . وستكون العربات هنا بعد دقائق معدودات » .

فتساءل صاميلوف : « من التى رضيت ؟ »

— « هى . . . . ديكروا . . . . لقد أوصينا باعداد عشاء فى المطعم الأوربى . . إنها رفضت بادىء الأمر . . . ولكنها بعد قليل لانت . . . والعصبة ستكون هناك . . . ستأتى طبعاً ، أليس كذلك ؟ »

— « أنا ؟ . . . كلا . لست على الذهاب حريصاً »

ولم يكن صاميلوف من زمرة بيبر التى تضم « الشباب الذهبى » من طلاب الجامعة ، وأعنى بهم أنجال كبار الملاك وأصحاب المصارف والتجار . وبيبر يعلم هذا حق العلم ولكنه كان مأخوذاً بهزة من التيه والأريحية بحيث أحب أن يشمل بعطفه كل إنسان . فاحتج على رفض صاميلوف :

— « أوه ! تعال ، دع هذا اللغو ، لا بد من ذهابك . . . ما هى أوجه اعتراضك ؟ »

فتهانف صاميلوف مرتبكا وقال :

— « أنت ترى . . . أجل ، أنت تعلم . . . إنى . . »

— « أوه . . لا عليك ! . . . نبئنى عن التفاصيل فيما بعد . . . والآن يا زميلى القديم ، أنت معنا »

وفى هذه الأثناء وفدت العربات . . . وكانت الجياد تصهل وتنغض رأسها فتجلجل الأجراس حول أعناقها جلجلةً مفرحة . واستقلّ الطلاب

العربات حابلهم ونابلهم ، وانبعثت أصواتهم فى هواء الليل ذى الصقيع فارتدت صريراً ضابحاً مجهوداً . وجلس صاميلوف إلى جانب بيبر ، وكان لا يزال فى غمرة تأثره بالموسيقى ، وذهنه مستغرق فى سبحات من الأحلام عجيبة ، بينما كانت العربات تتسابق فى الشوارع الخالية المهجورة . وكان عزيف الريح وتوقيع سنابك الخيل على الثلوج ، وتداعِى الطلاب وجلجلة الأجراس المستمرة ، كل هذه كانت تمتزج فى انسجام بديع . . . وثمة كانت تمر بصاحبنا لحظاتٌ يذهل فيها عن نفسه ، أو ينسى ما يجرى له وإلى أين يمضون به .

وعلى مائدة العشاء تحلّق الطلابُ حول المغنية الحسناء . وظلوا ينحون على يديها لثماً ، ويزُجون إليها عبارات إعجاب جريئة فى لغة فرنسية رديئة . وكانت . . وهى بادية النحر فتانة المحاسر . أفعل بألبابهم من الشمبانيا . . وقد التمعت عيونهم بحرارة التوق والرغبة أجمل التماع . . . وهى تحاول الإجابة على كلامهم فى نفس واحد . . . وتكركر ضاحكة وقد استلقت برأسها على الأريكة المكسوة بالأطلس . . . وتقرع بمروحتها منادميها وخطّاب ودّها قرعاً لطيفاً . . .

ولم يكن صاميلوف ممن تعودوا الشراب . . . فكان للقدحين اللذين شربهما سورة فى رأسه . فانتحى ركناً يحجب عن عينيه نور الثريات الساطع ، وجلس يرمق ديكروا بلحاظ مفتونة . وكان يعجب فى نفسه من تهجّم رفاقه واجترائهم على رفع الكلفة إلى هذا الحد مع المغنية العظيمة ..

وهو فى الوقت نفسه حاسدٌ لهم نافسٌ عليهم . . . وإن شئت فقل غيران . . .

وصاميلوف ذو خفرٍ بطبعه . وقد زاده استحياءً على استحيائه بالطبع نشوؤه فى أسرة دمثة محتشمة شديدة الحفاظ . وكان خلانه يسمونه «الهائم» لحيائه . والواقع أن به مشابه عدة من سذاجة الأطفال وغرارتهم ، وفيه طهر نادر فى تفكيره وشعوره . . .

وتساءلت ديكروا وهى تشير إلى ألكساى : « من هذا السيد هنالك فى الركن ؟ لكأنه خائف منا متوجس كالفأر . . لعل السيد شاعر . . »

وصاحت المغنية : « اسمع يا حضرة الشاعر . . تعال ! »

فدنا صاميلوف وهو بادى الارتباك ، ووقف أمام المغنية . . وأحس فورة الدم فى وجنتيه

— يا لله ! إن شاعركم لوسيمٌ حقاً !

وضحكت ديكروا ، وأردفت : « ما أشبهه بآنسة من الأوانس المعلمات فى مدرسة عليا ... وايم الحق ! إنه ليحمرّ من الخجل .. وما أجمل ذلك ! »

وتطلعت تستمتع الاستمتاع كله بالنظر إلى هذا الماثل أمامها بقوامه المعتدل السمهرى . . . وطلعته الواضحة المورّدة وقد خط فيها عذارٌ خفيف.. وشعره الذهبى الناعم المتهدل على جبينه . . وعلى حين فجأة أمسكت المغنية بيده وأجبرته على الجلوس إلى جانبها على الأريكة . وقالت بلهجتها الباريسية :

— لماذا كنت راغباً عن الجلوس إلىّ ؟ أنت شديد الكبرياء . . أتنتظر من امرأة أن تفاتحك ؟

فظل ألكساى أبكم لا يحير جواباً ، وانبرى أحد الطلاب ولم يكن قد رآه قط فى زمرتهم يقول فى خبث :

— « سيدتى — إن زميلنا لا يفهم الفرنسية »

فوقعت هذه الكلمة من ألكساى وقع السوط . فالتفت بحدة وحدّق فى المتكلم نظرَه وأجاب باقتضاب ولكن بلهجة فرنسية فصحى — بالفرنسية التى كانت فى وقت من الأوقات فخر العلية الروس ، ولم تزل كذلك فى بعض الأسر — « لا ضرورة مطلقاً يا مسيو لأن تتكلم عنى ، وعلى الأخص إننى لم أتشرف بمعرفتك . »

فهتفت المغنية : « مرحى ! مرحى ! » دون أن تفلت يده « وما اسمك يا شاعرى ؟ »

وكان صامليوف قد هدأت ثائرته ، فعاوده الحياء وعلت وجهه حمرة الخجل وهو يجيب :

— « ألكساى »

— « ماذا ؟ ماذا ؟ . أل »

فأعاد صامليوف الاسم

— « أوه ، هو ما يقابل عندنا ألكسيس ، حسناً يا مسيو ألكسيس . وعقاباً لك على ابتعادك سيكون عليك أن تصحبنى حتى مسكنى . إنى

فى حاجة إلى نزهة . . و إلا أصبحت غداً و بى صداع »

ووقفت بهما العربة بازاء فندق فاخر فى المرتبة الأولى من الفنادق . وساعدها على النزول ، وهمّ بالاستئذان منها . فنظرت إليه وعلى محياها حنو يسبي القلب و يغوى اللب وقالت له : « ألا ترى مقصورتى الصغيرة ؟ »

فتمتم منفعلَ الأعصاب : « إنى أكون . . . سعيداً . . . جداً ، ولكنى أخشى . . . إن الوقت جدّ متأخر . . . »

فقالت : « تعال . أريد أن يكون عقابى لك تاماً . . . »

و بينما كانت تبدل ثيابها ، تطلّع الفتى حوله إلى الغرفة ، فألفاها خلعت على هذا المسكن العادى إناقةً رشيقة خليعة لا تحسنها إلا باريسية . وكان الجو عاطراً بعبير رقيق مما كان قد آنسه أول ما آنسه حين جلس إلى جنبها فى العربة

وعادت متوشحة فى مِفْضلة بيضاء فضفاضة مشبوكة بمشابك ذهبية . وجلست إلى أريكة شرقية منخفضة وهى تلملم ثنايا جلبابها حول قدميها . ودعت الكساى بحركة آمرة إلى الجلوس بجانبها فأطاع :

— « اقترب منى . اقترب . . . اقترب أكثر من ذلك . . هكذا ! و بعد ، فلنتسارّ قليلا يا مسيو الكساى . أولاً ، من أين لك هذا التمكن من اللغة الفرنسية ؟ إنك تفصح عن نفسك بفصاحة مركيز »

فقال صاميلوف إنه كانت له مربية فرنسية منذ نعومة أظفاره ، وإنهم فى أسرته يتكلمون أكثر ما يتكلمون بالفرنسية .

ثم جعلت تطرح عليه السؤال فى إثر السؤال عن أهله ودراساته وأصحابه . . دون أن تدع له الوقت للاجابة على سؤال واحد . وفجأة وفى صوت خفيض رخيم سألته :

— « قل لى . . . ألم تحب امرأة قط ؟ . . . »

— « نعم . . . حين كنت فى الرابعة عشرة أحببت ابنة عمى . . . »

— « بشرفك »

— « بشرفى »

— « ولم تعلق بامرأة قط . . . أية علاقة . . . ؟ »

فأدرك المعنى . وعبثت أصابعه بهدب غطاء المائدة . وقال همساً :

— « كلا . أبداً »

— « ألا تحبنى ؟ » قالت ذلك بنفس الهمسة الخافتة ، ومالت عليه حتى أحس بحرارة وجنتيها . ثم هتفت به فى احتجاج عابثٍ : « انظر حين تخاطَب إلى وجه من يخاطبك » وأمسكت برأسه بين راحتيها وجعلته ينظر فى عينيها . . . لقد راعته وقدة نظرتها فى أول الأمر . . . ثم أشجته . . . وأخيراً أذكت فيه مثلَ وقدتها . . . فمال عليها . . . وكانت شفتاها مخضلّتين ملتهبتين .

* * *

— « هل مدام ديكروا هنا ؟ »

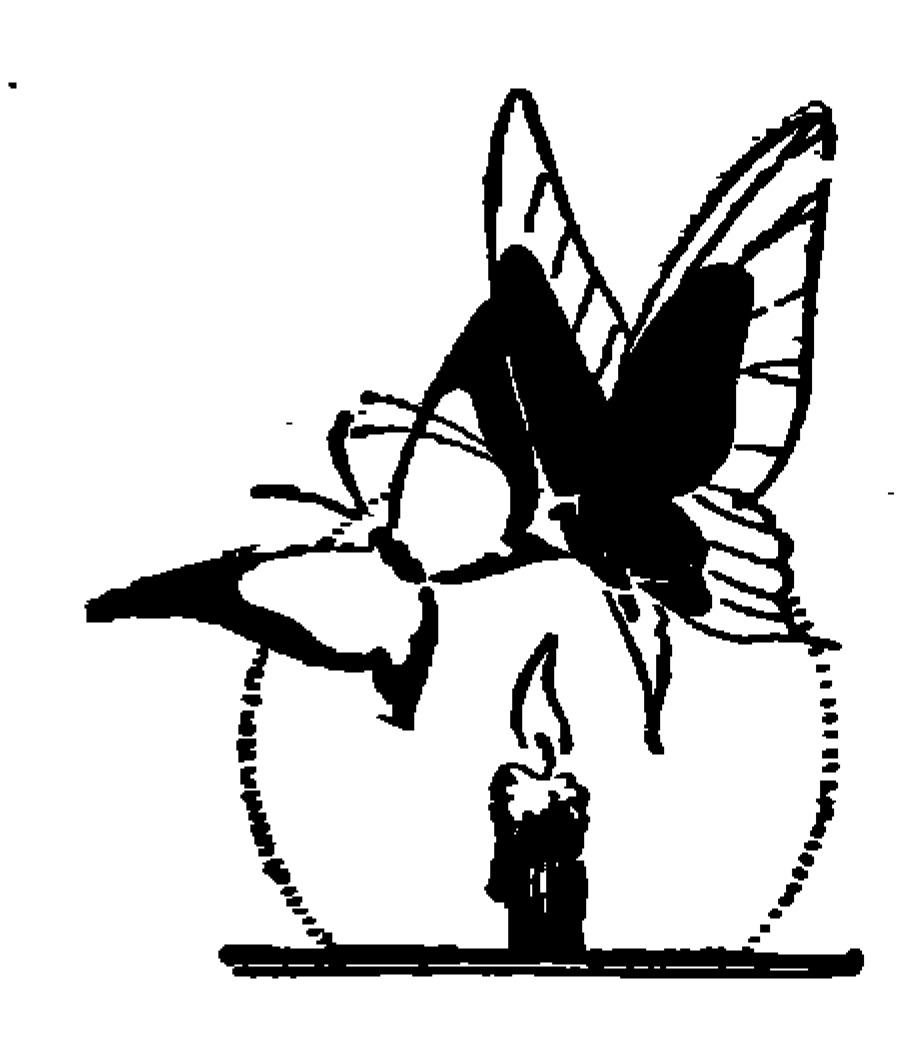
— « لا »

فأعاد الشاب السؤال : « هل أنت متأكد ؟ ربما تكون قد عادت في هذه الأثناء »

فقال الحاجب البدين المحشور في زيه الرسمي ، ذو الوجه المحتقن المنتفخ الناعس ، وهو يحك ظهره :

— « ماذا تعني ؟ هل أنا متأكد ! ! إنه شأني أنا أن أعرف إذا كانت هنا أم لا . ولماذا أنت على حرّ الجمر اهتماماً بها ؟ لقد سعيتَ إلى هنا طوال هذين الأسبوعين ملحفاً تعنتني بالسؤال عنها . . . وما دمتُ أقول لك إنها ليست موجودة ، ليست موجودة ، فذلك يفضّ الموضوع... هي لا تريد رؤيتك . . . أفاهم أنت ؟ . . . هو ذاك الأمر كله . . . »

الأمر كله ! لقد أحس الفتى بقلبه يَجِبُ وجيباً موجعاً ، ويحزّ فيه حنين مولّهٌ بغير جدوى . . . إنه يضطرم غيظاً . لماذا صنعت به هذا ؟ . . .



مبــارزة

« للروائى الروسى نيقولاى ليسكوف »

كان ذلك فى بكرة الصباح .

و«فلاديمير كلادينوف» فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالغلمان مظهراً ، له وجه مليح وشعر وافرٌ أشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة ، وكان واقفاً فى مرج معشوشب كساه متساقطُ الجليد ، وهو شاخص إلى ضابط آخر . وذلك الآخر رجلٌ أسبل الشاربين ، بائن الطول ، محمرّ الوجه ، وكان مواجهاً له على مسافة ثلاثين قدماً ، وهو يرفع على مهل يده حاملةً فى قبضتها مسدساً إلى فلاديمير .

وكان فلاديمير واضعاً ذراعيه متشابكتين على صدره ، حاملا كذلك فى إحدى كفيه مسدساً ، وهو ينتظر — انتظار من لايبالى — طلقةَ النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح ، وإن غشيتْه مسحةٌ من شحوب ، ترتسم الشجاعةُ فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه المستهذف ، وما يبـــدو على غريمه من تصميم مبرم لا رحمة فيه ، وذلك الانتباه الشديد من جانب الشهود الواقفين صفاً واحداً لا حس لهم ولا حراك ، كل هذه مجتمعة جعلت اللحظة مروعة بالغة

الروع ، مستغلقة غامضة الكنه ، رهيبة فاجعة الوقع . إنها قضية شرفٍ يجب هنا القضاء فيها . والجميع بجلالها شاعرون . وكانت اللحظة تزيد هولاً بمقدار بعدهم عن إدراك ماهم صانعون .

وانطلقت رصاصة . وسرت فى فرائص الجميع رعدة . هذا فلاديمير يرخى ذراعيه ، ويثنى ركبتيه ، ويخر فى مكانه . فهو على الثلج منطرح ، وقد نفذت الرصاصة فى رأسه . إنه مستلقٍ ، وذراعاه متباعدتان ، وشعره ووجهه ومتوسَّد الثلج تحت رأسه كلها مضرجة بالدم . وهرول إليه الشهود فاحتملوه . وفحصه الطبيب فقرر وفاته . لقد انحلت مشكلة الشرف وانفضّ أمرها . ولم يبق إلا إبلاغ الخبر إلى الفرقة التى يتبعها الضابط ، وإبلاغ النعى بقدر مايستطاع من التلطف والتحرز إلى الأم التى أصبحت من بعده فى الدنيا مفردة وحيدة . فإن الفتى القتيل وحيدها . وهى لم تخطر لأحد فى بال قبل المبارزة ، أما الآن فالكل يفكرون فيها ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ، ويدركون أنه لابد من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد له قبل إلقائه والتدرج فى مساقه . وفى النهاية وقع الاختيار على « إيفان جوليو بنكو » بوصف أنه أصلحهم جميعاً لتبليغ الخبر للأم وتهوين الخطب جهد المستطاع .

* * *

كانت « بيلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتئذ من نومها . وكانت تجهز لنفسها شاى الصباح ، حين دخل إلى غرفتها « ايفان جوليو بنكو » مكتئباً مرتبكا .

وهبت السيدة العجوز لملاقاة ضيفها قائلة : « لقد جئت فى الأوان والشاى مجهز يا إيفان ؟ » ثم أردفت : «إنك قادم لامحالة لترى ڤلاديمير؟ »

فغمغم جوليو بنكو مجفلا : « لا . . . إنما كنت ماراً . . . »

— «أنت لابد عاذره ، إنه لايزال نائماً . لقد قضى سحابة الليلة الماضية يذرع غرفته جيئة وذهاباً . وقد أوصيت الخادمة ألا توقظه ، فان اليوم عطلة العيد . ولكن لعلك آت فى مهمة مستعجلة ؟ »

— « كلا ، و إنما عرجت عليكم فى مرورى لحظة . . . »

— « إن شئت رؤيته أمرت بايقاظه »

— « كلا ، كلا ، لا تكلفى نفسك »

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد استقر فى وهمها أنه قادم ليرى ابنها فى أمر من الأمور . فخرجت وهى تغمغم فيما بينها و بين نفسها

وجعل جوليو بنكو يذهب و يجىء مضطرباً ، و يقلب كفيه ، وهو لا يدرى كيف يبلغها الخبر الفظيع . لقد أزفت اللحظة الحاسمة ، ولكنه لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه الروع ، فهو يلعن الحظ الذى ورطه شر مورّط فى الأمر كله

ولم تلبث بيلاجيا بتروفنا أن عادت واستهلت تقول وهى تدخل الغرفة مخاطبة زائرها ، سليمة السريرة طيبة النحيزة :

— « وبعد ! فكيف للمرء أن يثق فيكم معشر الشبان ؟ كنت كما رأيتنى أحاذر أن يُسمع للأقداح وأطباقها أدنى حس ، وألتمس الأعذار لابنى فى إطالته الرقاد، وأستسمحك فى عدم إيقاظه ، فاذا هو قد خرج منذ

برهة طويلة ولم يخلف أثراً ولا ترك خبراً ! ولكن ، لم لا تجلس وتشرب قدحا من الشاى ؟ لقد أهملتنا شر الإهمال فى هذه الأيام الأخيرة »

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، واسترسلت بصوت خافت :

— « كانت الأخبار كثيرة عندنا فى تلك الآونة ، وما أحسب أن فلاديمير استطاع كتمانها . ولا بد أنه أفضى بها إليك بحذافيرها كاملة حتى يومنا هذا . إن ابنى مستقيم الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخلدى الظنون مع ما بها من إثم ! فقد قلت فى نفسى إذا كان فلاديمير يذرع الغرفة طيلة ليلته فمعناه أنه يفكر فى « لينوتشكا » صباً بها ، مشوقا إليها . و إنه لمن مألوف عادته وديدنه إذا ذرع الغرفة الليلَ طوله أن يمضى لا محالة فى الغداة . آه يا إيفان ، لستُ أتمنى شيئاً على الله إلا أن يرزقنى هذه الفرحة من لدنه يقرّ بها عينى فى هرمى وخاتمة أيامى . وماذا تطلبه امرأة عجوز أكثر من هذا ؟ ليس لى غيرها أمنية وبشرى . و إنه ليخيل إلىّ أن ليس ثمة سؤال أرتجيه من الله بعد إذ يتزوج فلاديمير ولينوتشكا . إن فى ذلك كل الغبطة لى ، والسعادة التى ما بعدها سعادة . مالى سوى فلاديمير من حاجة وليس شىء أحب إلىّ من هناءته »

وكان تأثر السيدة العجوز شديداً ، فجعلت تكفكف الدمع تغرغرت به عيناها ، واسترسلت تتحدث اليه : « أوتذكر ؟ لم تكن الأمور فى البداية جاريةً على أحسن حال ، سواء فيما بينهما أو فيما يتعلق بالمال . فانكم معشر الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى بالزواج من غير عتاد من المال المرصود. حسن ، لقد تم الآن إعداد كل شىء : حصلت على الخمسة الآلاف روبية

اللازمة لفلاديمير . وفى الإمكان ذهابهما إلى المحراب لعقد الزواج غداة غد . أجل ، ولقد كتبتْ لى ليونتشكا خطاباً ما أعذبه وألطفه . إن قلبي لجذلان مبتهج . »

وأخرجت بيلاجيا بتروفنا — وهى مسترسلة فى كلامها — خطاباً من جيبها ، وأظهرته لجوليو بنكو ثم أعادته : « إنها لفتاة محببة ! وناهيك بطيبة نفسها ! »

وجلس إيفانْ جوليو بنكو ينصت إلى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد أراد أن يقطع عليها هذا الفيض من الأحاديث ، و يقول لها إن كل شيء قد انتهى ، و إن فلاديمير ابنها مات وأصبح فى خبر كان ، و بعد ساعة واحدة لن يبقى لها شيء من هذه الآمال الزاهية البهيجة الألوان . ولكنه لم يفعل وجعل ينصت إليها ملتزماً الصمت ، ونظر إلى وجهها الطيب اللطيف فأخذ منه الإشفاق عليها مأخذه ، و إذا حركة تشنج تأخذ بكظمه

وأخيراً سألته السيدة العجوز : « ولكن ، مالى أراك اليوم متجهماً ؟ ما بالك ، إن وجهك يبدو مكفهراً كامداً كالليل ! »

وود إيفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين أخبرك الخبر ! » ولكنه لم يخبرها حرفا ، واستعاض من ذلك بأن أشاح بوجهه ، وجعل يفتل شاربيه .

ولم تلحظ بيلاجيا بتروفنا شيئاً ، واستطردت وهى فى أفكارهامستغرقة :

« إن لك عندى تحية ، لقد كتبت لينوتشكا فيما كتبته لى توصينى بأن أبلغ تحياتها إلى إيفان ، وأن أرجوه الذهاب مع فلاديمير لزيارتها .

فأنت ترى بنفسك يا إيفان مودتها لك ! وايم الله لا، يظهر أننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى . لا بد من اطلاعك على الخطاب ، ولتنظرن أنت لنفسك مبلغ ما فيه من محبة وعذوبة »

وعاودت بيلاجيا بتروفنا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها ، وسحبت منها طرساً رقيق الورق مقرمط الكتابة ، ونشرته أمام إيفان ، وحاول إيفان أن يدفع عنه القرطاس الممدود ، ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد أنشأت تقرؤه :

(عزيزتى بيلاجيا بتروفنا — متى يئين الأوان الذى أخاطبك فيه غير هذا الخطاب ، فأدعوك بيا أمى العزيزة المحببة ! إننى أرقب ذلك اليوم متلهفة ، وإن أملى لعظيم بقرب حلوله حتى لقد آليت ألا أدعوك منذ الآن باسم غير — يا أمى !)

ورفعت بيلاجيا بتروفنا رأسها ، وتوقفت عن التلاوة ، ونظرت إلى جوليو بنكو بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى ياإيفان ! » ولكنها رأت جوليوبنكو يعضض شاربيه بناجذيه ، ورأت عينيه هو أيضاً مغرورقتين . فقامت وأقبلت عليه ، ووضعت يدها المرتعشة على شعره ، وقبّلته فى هينة وأناة فوق جبينه ، هامسة من شدة التأثر : « شكراً ياإيفان ! لقد كنت دائما أعتقد أنك وفلاديمير أقرب إلى الأخوين الشقيقين منكما إلى مجرد صديقين . لاتؤاخذانى . إننى سعيدة أيما سعادة . والحمد لله سبحانه ! »

وفاضت الدموع على خديها . واشتد بإيفان جوليو بنكو اضطرابه

وارتباكه ، ولم يسعه إلا أن يأخذ بين راحتيه يدها الباردة المعروقة ويُكب عليها تقبيلاً .

وكان مختنقاً بالعبرات فلم يستطع أن يلفظ حرفا . ولكن هـذه الفورة من الحب الأموى أشعرته بالتبكيت الشديد ، حتى لقد آثر لوأنه كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت الرصاصة فى دماغه ، فذلك أهون عليه من سماع عبارات الحمد له والتنويه بصداقته وخالص أخوته تجرى على لسان هذه المرأة ، وهى بعد هنيهة قصيرة سيتضح لها حقيقة الواقع وجلية الأمر . ماذا يكون رأيها فيه وقتئذ ؟ ألم يقف — وهو الصديق وفى حكم الشقيق — ساكناً جامداً حين كان المسدس مسدداً إلى فلاديمير ؟ أليس هذا الشقيق نفسه هو الذى قاس المسافة بين الغريمين ، وهو الذى حشا المسدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقد صنعه وهو يعى ما يصنع ، وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الآن صامتاً ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه .

إنه جزع مرتعب . يحتقر فى هذه اللحظة نفسه ولا يستطيع مع ذلك مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة ، وإن إحساساً غريباً بالتناقض يحرج صدره ويزهق روحه ، فهو فى كرب واختناق . والوقت يمر مسرعاً . إنه يعلم بمروره ، وكلما زاد به علماً وهت عزيمته ولم يقو على حرمان بيلاجيا بتروفنا مما بقى لها من لحظات سعيدة أخيرة . فماذا هو قائل لها ؟ وكيف يقدّم الخبر ويهيؤها لسماعه ؟ حار إيفان جوليو بنكو فى أمره وأسقط فى يده .

ولقد انفسح له الوقت هنا ليلعن فى سره جميع المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة وسائر ما يسمونه قضايا الشرف

على اختلاف ألوانها . وأخيراً هبّ من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح أو الفرار . وأقبل، فتناول —معجِّلاً ومن غير كلام — يد « بيلاجيا بتروفنا » وانحنى يلثمها ، فأخفى بذلك وجهه عنها ، وإذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها . ثم انتزع نفسه وانطلق لا يلوى على شىء ، وأخذ عند الباب معطفه الـكثيف وخرج من البيت دون أن يقول كلمة .

وتطلعت بيلاجيا بتروفنا وراءه مندهشة ، وقالت فى نفسها : «لا شك أنه أيضاً عاشق ، مسكين ، كان الله فى عونه . إيه ! إنها لوعة الصبا تلوعهم ومن بعدها السعادة »

ثم سرعان ما نسيته ، وغاب أمره عن بالها ، واستغرقت العجوز فى أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !



حبيبهـــــا

« للروائى الروسى مكسيم جوركى »

روى لى بعض معارفى هذه الواقعة :

اتفق لى وأنا طالب فى موسكو أن عشت فى جوار سيدة من اللواتى فى سمعتهن موضعٌ للتهمة ومثار للريبة . وهى بولونية ويدعونها تريزا . وكانت سمراء قوية البنية ، إلى طول فى القامة ، كثة الحاجبين فاحمتهما ، عريضة الوجه ، غير مصقولة الملامح كأنها منحوتة بالفأس . وكانت لمحةُ الحيوانية فى عينيها السوداوين ، ونبرةُ صوتها الغليظ العميق، ومشيتها التى تحكى مشية الحوذى ؛ وصلابة عضلها الجديرة بامرأة من بائعات السمك — كانت هذه جميعاً تملأ قلبى لها استكراهاً ومنها نفوراً .

وكنت أسكن الطابق الأعلى وغرفتُها تجاه غرفتى . وكنت لا أترك بابى قط مفتوحاً إذا علمت بوجودها ، وهو أمر نادر الوقوع . ولقد ألقاهـا مصادفةً فى السلم أو فى الفناء فتبتسم لى ابتسامة تبدو فى نظرى ماكرة مستخفة . كما أننى بين آونة وأخرى كنت أراها سكرى ، شعثاء الشعر ، عشواء العينين ، وقد بدا ناجذاها فى تهانف مستهتر فظيع . وفى أمثال هذه الحال كانت تخاطبنى :

« كيف حالك يا حضرة الطالب »

وتزيدني ضحكتها السخيفة مقتاً لها على مقت . ولم يكن أحبَّ إلىَّ من الانتقال من المسكن تجنباً لهذا اللقاء وهذه التحية ، لولا أن غرفتي الصغيرة لطيفة تشرف نافذتها على منظر واسع شاسع ، والطريق تحتها يشمله السكون — فأنا لهذا متحملٌ صابر . وفي صبيحة ذات يوم كنت مستلقياً على فراشي ألتمس لنفسي عذراً عن الذهاب إلى الدرس . و إذا بالباب يفتح ، وصوت تريزا السمجة المرذولة — صوتها الغليظ العميق يرنّ على عتبة بابي :

« لا بأس عليك ، ياحضرة الطالب »

فبادرتها : « ماذا تريدين » . و إذا وجهها يعلوه اضطرابٌ وتبدو عليه ضراعة . . . وما عهدتُ لها قط مثل هذا الوجه :

— سيدي ، إني قصدت إليك في مكرمة . فهل تصنعها لي ؟

فلبثتُ في موضعي صامتاً . وناجيت نفسي : « يالطيف !.. تجلد يابني »

فمضت تقول وفي صوتها ضراعة : « أريد أن أبعث بخطاب إلى بلدي . هذا كل ما في الأمر »

فقلت في نفسي : « خطفتكِ الشياطين » . على أني وثبت من فراشي وجلست إلى منضدتي وتناولت قرطاساً ، وقلت : « تعالي ، اجلسي واملي عليّ »

فتقدمت ، وجلست على المقعد في رقة ودلال ، ونظرت إليّ نظرة المريب

— « حسناً ، لمن تريدين الكتابة »

— « إلى بولسلاف كاشبوت، ببلدة سقيبتز يانا، فى طريق وارسوفيا..»

— « حسناً ، هاتى ما عندك »

— « عزيزى بولز . . يا قرة العين . . ياحبيبى الوفىّ . حرستك السيدة العذراء ! يا من قلبه من الذهب الخالص ، لماذا انقطعت هذا الوقت الطويل عن الكتابة إلى حمامتك الصغيرة الهاتفة تريزاً ؟ »

فكاد يغلبنى الضحك « حمامة صغيرة هاتفة » وهى فى طولها تنيف على خمس أقدام ، وقبضة يدها تزن خمس أقات وزيادة ، وأما الوجه منها فأسحم كأنما الحمامة الصغيرة قد عاشت طوال حياتها فى مدخنة ولم تغتسل فى يوم من الأيام

وتمالكت نفسى جاهداً . ثم سألتها :

— « ومن بولست هذا ؟ »

فراجعتنى وكأنما ساءها غلطى فى الاسم « بولز يا حضرة الطالب ، هو بولز فتاى المحب »

— « فتى ! »

— « فيم دهشتك يا سيدى ؟ ألا يصح — وأنا فتاة — أن يكون لى فتى ؟ »

هى ؟ فتاة ؟ عظيم والله !

وقلت « إيه ، لم لا ؟ كل شىء ممكن . وهل هو فتاك من عهد طويل؟ »

— ست سنوات

فتعجبت فى نفسى ثم قلت « عظيم ، لنتم خطابك . . »
(ولا أ كذبك القول . لقد وددت لو كنت مكان بولز ولو كانت هذه التى تكاتبه ليست تريزاً بل دونها أيضاً)

وفى الختام قالت تريزاً مع انحناءة برأسها تحيةً لى :

— « أشكرك يا سيدى من صميم قلبى لحسن صنيعك . ولعلى أستطيع أن أؤدى لك خدمة ، أليس كذلك ؟ »

— « كلا ، ولك منى فروض الشكر على كل حال »

— «سيدى، قد تحتاج قمصانك أو سراويلك إلى شىء من الإصلاح»

فأحسستُ أن هذه الماثلة أمامى كالفيل فى زى امرأة قد جعلت وجهى يحتقن خجلا ، ولقد أجبتها فى غير قليل من الحدة إنه ليس بى إلى خدماتها أدنى حاجة

فانصرفت

وانقضى أسبوع أو أسبوعان ، وفى ذات مساء كنت جالساً إلى نافذتى أصفّر وأفكر ، وأنا متضايق بَرِمٌ بالحياة ، والجو كَدِرٌ عَكِرٌ ولم تكن بى رغبة فى الخروج ، فأقبلتُ — من السآمة — على نفسى أحللها ، وأذهب مذاهب التأمل والنظر ، وذاك أيضاً عمل خامد بليد ، ولكنى لم يكن يعنينى أن أصنع غيره ، و إذا الباب يفتح و إذا داخلٌ يدخل ، ثم سمعت صوتاً يقول :

— « إيه يا حضرة الطالب، أرجو ألا يكون عندك عمل هامّ يعْجلك ؟»

هى تريزا إذاً . وَىْ وَىْ !

— « كلا . ما الخطب ؟ »

— « كنت أهِمّ — يا سيدى — أن أسألك أن تكتب لى رسالة أخرى»

— « حسناً جداً ! إلى بولز ، أليس كذلك ؟ »

— « كلا ، هى من بولز هذه المرة »

— « ماذا ؟ »

— « ما أغبانى ! إنها ليست لى يا حضرة الطالب ، أرجوك المعذرة إنها لصاحب لى ، لا أعنى صاحباً و إنما أحد معارفى — رجل من معارفى. إن له حبيبة مثلى تماما ، اسمها تريزا ، هذه هى المسألة ، فهل لك يا سيدى أن تكتب خطاباً إلى تريزا هذه »

فرفعتُ بصرى إليها — فإذا وجهها مضطرب وأصابعها مرتجفة ، لقد غُمّ علىّ وجهُ الأمر فى البداية ، ولكننى الآن فطنتُ إلى جليته

فقلت « اسمعى يا سيدتى ، ليس الأمر أمر رسائل بين رجال باسم بولز ونساء باسم تريزا على الإطلاق ، و إنما كنت تختلقين لى الأكاذيب عمداً ، فإياك أن تتسللى بعد اليوم إلى غرفتى ، فليست بى أدنى رغبة فى أن تتصل بيننا الأسباب ، أفاهمة أنت ؟ »

فما راعنى إلا هلعٌ غريب يستولى عليها وحيرةٌ تشتد بها ، وقد جعلتْ تنقّل قدميها دون أن تنتقلا بها خطوة ، وتغمغم على نحوٍ مضحك تريد أن

تقول شيئاً فلا تستطيع ، وانتظرتُ أرقب ما تنجلى عنه هذه الحال ، فدلّنى نظرى وهدانى إحساسى إلى أننى — على ما يظهر — أخطأتُ خطأً كبيراً فى التظنن بأنها تبتغى استدراجى والميل بي عن الطريق القويم ، وصحّ عندى أن فى الأمر شيئاً خلاف ذلك

واستهلّت تريزا « يا حضرة الطالب » ولم تزد ، ثم دارت على عقبها فجأة وهى تلوّح بذراعيها ، واندفعت إلى الباب وخرجت، وبقيت فى موضعى متكدر الخاطر ، وأصغيتُ ، فسمعتها تدفع بابها بشدة — ولا شك أن المرأة المسكينة غاضبةٌ أشدّ الغضب ، فراجعتُ نفسى فى الأمر وقلّبت فيه وجوهَ الفكر ، فاجتمع عزمى على أن أذهب إليها فأدعوها إلى المجىء هنا لأكتب لها ما تشاؤه جميعاً

ودخلتُ إلى مسكنها وتلفّت ، لقد كانت جالسة إلى المنضدة ، معتمدة على مرفقيها ، ورأسها بين كفيها ، فقلت لها : « أصغى لى »

(والحق أننى إلى اليوم كلما بلغتُ إلى هذا الموقف من حكايتى ما أزال أحس بمبلغ ما كان من خُرقى وغفلتى) قلت : « أصغى إلىّ »

فهبّتْ من مقعدها ، وأقبلت على ، وقد أبرقت عيناها ، ووضعت راحتيها على كتفى وأنشأت تهمس — أو على الأصح تُهَمْهِم بصوتها الأجشّ العميق :

— « الآن ، أَلْقِ بالك إلىّ . هذه هى الحال : فليس من رجال باسم بولز على الإطلاق ، ولا نساء أيضاً باسم تريزا ، ولكن ، ماذا بك من ذاك ؟

أيَشقّ عليك أن تجر القلم على القرطاس ؟ ماذا ؟ حتى أنت ! ولمّا تزل فتى صغير السن غضّ الاهاب ! أجلْ ، ليس من أحد على الإطلاق ، لا بولز ولا تريزا ، لا يوجد غيرى أنا ، هذى هى واقعة الحال ، فاهنأ الآن ! »

بغتتنى هذه المقابلة ، ثم لم ألبث أن قلت « لا تؤاخذينى ، فيم هذا كله ؟ تقولين بولز لا وجود له ؟ »

— « هو ذاك »

— « ولا تريزا أيضاً ؟ »

« ولا تريزا . أنا تريزا »

لم أفقه من الأمر شيئاً ، وحدجتها بنظرى ، أحاول أن أعرف أيّنا فارقَ صوابه ، ولكنها عادت إلى المنضدة ، وجعلتْ تلتمس فوقها شيئاً ، ثم أقبلتْ ثانية علىّ ، وقالت بلهجة المستاء :

— « إذا كانت الكتابة إلى بولز تشقّ عليك إلى هذا الحد ، فهاك كتابك إليه خذه ، فغيرُك يكتبون لى »

ورفعتُ نحوها بصرى ، فإذا فى يدها كتابى إلى بولز . أفّ لها !

— « اسمعى يا تريزا ! هذا جميعه ما معناه ؟ لماذا تستكتبين الناس له ، وأنا قد كتبتُ له خطابا ولم ترسليه ؟ »

— « أرسله أين ؟ »

— « كيف ، إلى بولز هذا الذى تذكرينه »

— « إنه ليس بأحد »

لم أعقل شيئاً البتة . ولم يبق لى إلا أن أنفث نفثةً عن صدرى ثم أمضى . ولكنها انطلقتْ تبيّن عن نفسها وتشرح حالها ، فقالت وهى لمّا تزل مغضبة :

— « ماذا فى الأمر ؟ أقول لك إن هذا الإنسان لاوجود له » و بسطتْ ذراعيها ، كأنها هى نفسها لا تدرى لمَ لا يكون لها أحد كالذى ذكرت . ومضت تقول : « على أننى أردته أن يكون . . . ألست بإنسانةٍ كسائر الناس ؟ نعم ، نعم ، إننى أعرف بطبيعة الحال . . . ولكن لاضير على أحدٍ إذا أنا كتبتُ إليه حتى أستطيع أن أرى . . . »

— « معذرة ، تكتبين إلى مَنْ ؟ »

— « إلى بولز بطبيعة الحال »

— « ولكنه لا وجود له »

— « أواه ! أواه ! وماذا فى عدم وجوده ؟ هو لا وجود له ، ولكنه قد يوجد ! وأنا أكتب إليه فيخيل إلىّ أنه موجود ، أما تريزا — فهى أنا ، وهو يرد على خطاباتى ، فأعيد الكتابة إليه . . . »

أخيراً فهمتُ ، وأحسست من نفسى باللوعة والتعاسة والخجل — أوْ ما أشبه ذلك . فهاهنا بجوارى ، وقاب قوسين أو أدنى منى ، تعيش إنسانة ليس لها فى الخلق أجمعين من يحنو عليها و يظهر لها المحبة ، فاختلقتْ هذه الإنسانة لنفسها حبيباً

ومضت تريزا فى حديثها : « فانظر الآن ، أنت كتبت لى خطاباً إلى بولز ، فأنا أحمله إلى من يقرءونه لى ، فإذا قرأوه لى أصغيتُ وتصورت أن بولز هناك ، ثم أطلب إليك بعدها أن تكتب رداً من بولز إلى تريزا — أعنى إلىّ أنا ، فإذا قُرىء علىّ هذا الكتاب شعرتُ شعوراً لا يخامره الشك بأن بولز هناك بالفعل ، فتصبح الحياة أنعم جناباً وأندى مسًّا »

فقلت لنفسى حين سمعتُ ما سمعت « تبًّا لك من أبله! » ، ومنذ ذلك الحين ، وأنا أكتب لها بانتظام مرتين فى كل أسبوع خطابا إلى بولز ، ثم رداً من بولز إلى تريزا ، وكنت أجيد فى كتابة الردود خاصة وهى بطبيعة الحال تستمع إليها ، وتنتحب كما لم تنتحب عاشقة ، أو — على الأصح — تجأر بصوتها الأجش العميق . وكانت تجزينى على إثارة شجوها وتحريك بكائها بالرسائل الحقيقية على لسان بولز الخيالى بما كانت ترتق لى من جوارِبى وقمصانى وسائر ملبسى . وقد حدث بعد أشهر ثلاثة من عهد بداية هذه الواقعة أن زُجّت فى السجن لأمر من الأمور ، ولاشك فى أنها اليوم من سكان القبور

* * *

ونفض محدثى الرماد من سيجارته وتطلّع إلى السماء مفكراً ثم ختم حديثه قائلاً :

« أجل ، أجل ، كلما ذاق الإنسان من الحياة مرّها زاد نهمه إلى

حلوها . أما نحن ، نحن المتزمّلين فى أسمال فضائلنا فننظر إلى الآخرين من سحابة أَثَرتنا واكتفائنا بأنفسنا واقتناعنا بأننا المنزّهون عن كل شائبة ، فلا نفهم من ذلك شيئاً »



القبـــلة

« للروائى الروسى أنطون تشيكوف »

فى مساء اليوم العشرين من مايو فى الساعة الثامنة كانت ست مدفعيات من فرقة المدفعية حرف « ن » فى طريقها إلى المعسكر فنزلت فى بلدة ميستشكى على نية قضاء الليلة .

وكان الهرج على أشده . فبعض الضباط لهم حول المدافع حركة وجلبة ، والآخرون فى الساحة الواقعة أمام الكنيسة يتذاكرون مع كبيرهم . وإذا براكبٍ مقبل من وراء الكنيسة على صهوة طِرْف من الجياد الأصيلة . واقترب الفرسُ ، كُمَيْت اللون ، مضمّر البطن ممشوقا محصوص الذيل ، أَجْيد عريض اللّبان ، يخطر فى مشيته ، هزِجا يترقّص طوال الوقت ولا تستقر قوائمه كأنما تمس الرمضاءَ حوافرُه . ولما بلغ الراكب إلى محاذاة الضباط جذب اللجام ورفع قبعته محييا وقال فى لهجة رسمية :

« الجنرال فون رابك — وداره هنا عن كثب — يتشرف بدعوة حضرات الضباط للشاى . . »

وهزّ الجواد رأسه ، وترقّص ، ثم تمايل متراجعاً . ورفع الراكب قبعته

مرة أخرى وأدار عنان جواده العجيب ، وغاب وراء الكنيسة .

فتردد على ألسن الضباط وهم يدلفون متفرقين إلى المحلة « سحقاً لها من دعوة . هذا النعاس يُثقل أجفاننا فيأتينا من يُدعى فون رابك بشايه . و بئس الشاى ! »

فإن ضباط المدفعيات الستّ لا يزال يعلَق بأذهانهم و يتمثّل لعيانهم ذكرى دعوة سابقة . فقد اتفق فى أثناء بعض المناورات الأخيرة أن دُعوا مع زملاء لهم من القوازق إلى الشاى فى دار سيد من سادة الريف وهو ضابط قديم متقاعد يحمل لقب الكونت . فلقد بالغ فى إكرامهم هذا الكونت الكريمُ الوفادة الأريحىُّ النفس ، فأطعمهم حتى الشبع ، وسقاهم من الفودكا حتى الرى ، واستبقاهم للمبيت . ولقد طاب لهم هـذا كله والتذّوه — مافى ذلك ريب . ولكن الجندى القديم إلى جانب مبالغته فى إكرامهم قد بالغ أيضاً فى منادمتهم وأطال سمرهم — وهنا الخطب . فلم يزل بهم حتى السحر يهضِب و يسحّ بما كان من أخبار ووقائع ، و يجرّهم من غرفة إلى أخرى ليظهرهم على صور نفيسة ونقوش قديمة وسلاح نادرِ المثال ، و يقرأ عليهم رسائل لمشاهير الرجال بخطهم . والضباط جميعهم قد استولى عليهم التعب وأخذ الملل بمخنقهم وهم يستمعون و يفغرون أفواههم وكلهم حنينٌ إلى الفراش يتثاءبون خفية فى أكمامهم ، حتى إذا أذنَ صاحب البيت وخلَّى عنهم كان قد انقضى وقت النوم .

أيكون فون رابك كونتاً آخر من الضباط المتقاعدين ؟ جائزٌ جداً .

ولكنه لم يكن من سبيل إلى التخلف عن دعوته . فاغتسل الضباط وارتدوا ثيابهم وخرجوا ييممون دار فون رابك . واستخبروا عنها فى ساحة الكنيسة ، فقيل لهم أن يهبطوا الربوة إلى النهر ، و يسيروا والشاطىء حتى يوافوا حدائق الجنرال ، فيجدوا ممراً يؤدى سويا إلى الدار . و إلا ، فإن شاءوا أن يرتقوا الربوة فإنهم يوافون بيادر الغلة الملحقة بدار الجنرال على مسيرة ثلثى الميل من البلدة . وقد آثروا هذه الطريق .

وتساءل أحدهم :

— « ولكن مَن يكون فون رابك هذا ؟ أهو الذى كان قائداً لفرقة الفرسان حرف « ن » فى موقعة بليفنا ؟ »

— « كلا ، لم يكن فون رابك ، و إنما كان « راب » وحدها عاطلةً من لقب الشرف »

— « ما أبدع الجو هذه الليلة ! »

وحين وردوا أولَ البيادر إذاهم بمفْرق طريقين ، أحدهما ذاهب قُدُما حتى يغيب فى ظلمة الغسق ، والآخر عارجٌ إلى اليمين يفضى إلى دار الجنرال . وكان الضباط كلما دنوا منها يخافتون من جلبة كلامهم . وكانت تمتد على الجانبين صفوفُ بيادر الغلة ، حمر السقوف مبنية من الآجر ، ولها طلعة ثقيلة متجهّمة كهيئة الثكنات فى بلاد الريف . وأمام أعينهم تلتمع الأنوار فى نوافذ دار فون رابك . . ؟

وصاح أحد الشبان الضباط :

— « بشرى ، أيها السادة ! هذا كلبنا الصياد سابقٌ فى الطليعة . فنحن لا شك مقبلون على صيد ! »

والكلب الصياد الذى يعنونه بكلامهم هو الملازم لو بتكو ، وكان طويل القامة بدينا ، أمرد الوجه أجرده ، ولم يطرّ له شارب ، ولم يخضرّ له عذار ، مع أنه بلغ الخامسة والعشرين . وقد اشتهر بين رفاقه بأنه يتنسم ريح النساء ويخبر عن قربهن بقوةِ سليقةٍ فيه وإلهامِ غريزة . والتفت الملازم إلى رفاقه حين سمع إشارتهم وقال :

— « أجل ، نفسى تحدثنى أن هناك نساء »

وعند باب الردهة طلع عليهم رجلٌ وسيم الطلعة مدّخر القوة فى الستين من عمره ، هو فون رابك فى غير ثوبه العسكرى ، وقد تقدم يستقبل مدعويه . وكان وهو يشدّ على أيديهم يعتذر بأنه على شدة سروره بهم لا يحتجزهم للمبيت ، فإن عنده من الأضياف شقيقتيه وأولادهما وشقيقه ونفراً من أهل جيرته — وأنه فى الواقع لم تبق غرفة خالية . على أنه مع هذا الترحيب والإكثار من المعاذير وإظهار التهلل والهشاشة فالواضح البديهى أنه إنما دعاهم لأن مراسم الأدب تقضى بذلك . وصعد الضباط الدرج المفروش بالطنافس ، وقد سمعوا إلى مضيفهم وأدركوا الأمر كلّ إدراكه ، وتمثل لهم ما هم مُدخلوه على جوّ هذه الدار من شعور بالتهجّم والإزعاج . وساءل كلٌّ نفسَه أيكون فى وسع رجلٍ جمع شقيقتيه وأولادهما وشقيقه وأهل جيرته ليحتفلوا ولا ريب بعيد عائلى أن يرتاح وينبسط

لهجمةِ تسعة عشر ضابطاً لم يسبق له قط رؤيتهم ؟

وعند باب قاعة الاستقبال وقفتْ تحييهم سيدةٌ كبيرة السن ، مديدة الشطاط ، حسنة الصورة ، وجهها أميل إلى الطول ، سوداء الحاجبين ، شديدة الشبه بالأمبراطورة السابقة أوجينى . وكانت تهشّ لهم فى تأدب ووقار ، وهى تؤكد لهم سرورها بهم ، وتأسف على اشتغال المكان عن مبيتهم . ولكن الابتسامة المتأدبة الوقور غابت حين ولّتْ منصرفة . وكان ظاهراً جلياً أنها رأت ضباطاً كثيرين فى سالف أيامها فليس لهم بعدُ فى عينها أدنى طرافة .

وكان يجلس فى حجرة المائدة الفسيحة إلى خوانٍ ممدود عشرةٌ من الرجال والنساء يشربون الشاى . وخلفهم وراءَ حجاب من دخان السيجار يقف نفرٌ من الشبان يلغطون بالحديث ، و بينهم شابٌّ أصهب الشاربين مفرط النحافة يتكلم الإنجليزية عالىَ الصوت وفى منطقه لثغة . وامتدّ نظر الضباط عَبْرباب مفتوح فإذا قاعةٌ ساطعة الأنوار مكسوة الجدران بالورق الأزرق .

وقال الجنرال بصوت جهير وهو يتكلف الجذل والحبور :

« أنتم أيها السادة كثيرون يتعذر تعريفكم فرداً فرداً ، فلتعرفوا أنفسكم بعضكم إلى بعض . أرجوكم ، من غير تكلف مراسم »

فانحنى الزوار تحية ، وعلى وجوه البعض مسحةُ الجد بل التزمّت ، والبعض الآخر يبسمون ابتسامة فاترة مغتصبة . و بالجملة كانوا كلهم فى حال

من الارتباك والضيق . وأخذوا مجالسهم إلى المائدة . وكان أشدهم شعوراً بالربكة والضيق الكابتن ريابوفتش ، وهو ضابط ضئيل الجسم ، أفَكّ المنكبين ، ذوعوينات ، وله شارب كشارب القط البرى . وإذا كان إخوانه الضباط تبدو عليهم سيماء الجد أو الابتسام المفتعل فلقد كانت سحنته وشاربه الذى يحكى شارب الهرّ وعويناته جميعاً كأنما تقول : « أنا بين ضباط الفرقة أجمعين أشدّهم استحياءً واستخذاء وتفاهة » . وقد ظل طويلاً بعد جلوسه إلى المائدة لا يملك حصْر وعْيه فى شىء واحد . فالوجوه والملابس وقنانى الخمر المضلّعة وأقداح الشاى الداخنة وزخارف البناء البارزة — هذه كلها كانت مختلطة فى إحساس واحد يغمره ويستبدّ به ، فتغشاه منه روعة شديدة ، ويجعله يود لو حجب وجهه وأغمض عينيه . فهو هنا فى مِثْل موقف المُحاضر للمرة الأولى فى حياته ، فهو يرى الأشياء ولا يحقّق منها شيئاً ، حتى ليصح القول أنه قد اعتراه ما يسميه رجال الطب فى تشخيصهم « بالعمى الباطنى »

ولكنه أخذ يتغلب بعضَ الشىء على انكماشه واستخذائه فيستوضح الأشياء ويرقبها . وكان أول ما استرعى نظره — شأن المنقبض عن الناس الخجول — هو تلك الجرأة المدهشة التى يبديها معارفه الجدد . فهذا فون رابك وعقيلته وسيدتان كبيرتان وفتاة فى ثوب بنفسجى ، وذلك الفتى الأصهب الشارب ولعله من فتيان آل فون رابك ، وقد جلسوا إلى الضباط الغرباء دون تكلف ومعاناة كأنما قد استعدوا لها كالممثلين بالمرانة على

الحركة والإلقاء ، وسرعان ما خاضوا فى أحاديث حامية منوّعة لم يلبثوا أن جرّوا إليها الضباط . فرجال المدفعية أسعدُ حالاً من الفرسان ومن المشاة فيما تقرره ذات الثوب البنفسجي ، و يعارضها فى ذلك فون رابك والسيدتان الكبيرتان . وقد استحرّ النقاش من غير استقراء واطرادِ سياق . وكان ريابوفتش يستمع إلى الغادة ذات الثوب البنفسجي وهى تشتدّ فى المناظرة والجدال فى موضوع لا علم لها به ولا تدرى ما هو ولا أمرَه ، وقد جعل يرقب الابتسامَ يظهر ويختفى فى أسارير وجهها .

وكان آل فون رابك — إلى براعتهم فى جرّ ضيوفهم إلى النقاش والمساجلة — يرقبون كل فم وكل قدح . هل تناول الشاىَ كلُّ مدعو ، وهل كانت حلاوته كافية ، ولماذا لم يمدّ هذا يده إلى الكعك ، وذاك هل تراه أميل إلى الكونياك ؟ وكان ريابوفتش كلما أصغى لهم وتطلّع نحوهم زاد إعجابه بهذه الأسرة المصانعة التامة الدربة .

وانتقل الضيوف بعد الشاى إلى قاعة الاستقبال . أى والله ، إن غريزة لوبتكو لم تكْذبه فقد كانت الحجرة غاصة بالغوانى والفتيات . ولم تمض دقيقة حتى كان « كلب الصيد » الضابط إلى جانب فتاة فى ميعة الصبا شقراء الشعر فى ثوب أسود ، وهو ينادمها مائلاً فى وقفته كأنه مستند إلى سيف غير منظور ، يهز كتفيه فى تظرّف وعجْب . ولا ريب فى أنه كان يلغو بكلامٍ لا ظل فيه للطرافة والإيناس ، فإن الفتاة الشقراء كانت ترنو إلى وجهه المغترّ الراضى بنظرة المسامح المتغاضى ، وكانت لا تزيد على أن

تردد فى فتور « حقاً ! » وكان فى « حقاً » هذه الفاترةِ ما هو حقيقٌ بأن يقنع كلبَ الصيد على الفور بأنه أخطأ الطريق وضلّ الأثر .

وبدأت الموسيقى . وكانت نغماتُ مقطوعة الرقص الشجية تطفر إلى خارج النافذة المفتوحة ، فإذا القوم يحسبون بأن خارج النافذة ربيعٌ فى إبانه ، وأن الليلة من ليالى أيار . وكان الهواء عطراً يعبق برائحة أوراق شجر الحور والورود والبنفسج . وكان كلٌّ من نغم الرقص والربيع صادقاً خالصاً . ودارت فى رأس ريابوفتش نشوة الكونياك مشعشعة بموسيقى الرقص ، فشخَص بطرفه إلى ناحية النافذة وعلى وجهه ابتسامة ، ثم جعل يتتبع حركات النساء ، وخيّل إليه أن شذا الورود والحور والبنفسج لا يتضوع من الحدائق فى الخارج بل من وجوه أولئك الغوانى الناضرة وأبرادهن الموشاة .

وأخذ الرجال والنساء يرقصون . وقد دار فون رابك الشاب دورتين حول الغرفة مراقصاً لفتاة شديدة النحول . وخفّ الضابط لوبتكو على خشب الغرفة الأملس الملمّع وأقبل على الحسناء ذات الثوب البنفسجى فسمحتْ له برقصة . أما ريابوفتش فظل مع غير المراقصين واقفاً بجانب الباب ساكناً شاخص البصر . وكان دهشاً لا تنقضى له دهشة من جرأة الرجال يخاصرون على مرأى الناس نساء لا يعرفونهن . وحاول أن يتصور أنه يصنع صنيعهم ولكنه كان يحاول عبثاً . ولقد أتى عليه حينٌ كان يحسد رفاقه على شجاعتهم واقتحامهم ، ويألم من دوام مراجعته لنفسه ، ويحزّ

فى قلبه علمه أنه خجول ، أَفَكّ الكتفين ، ليست له شارة من وجاهة ، وأن شاربه كشارب الهر ، وأنه لم يُختص بالنحول خصرُه بل هو جميعه خصرٌ مفرط النحول مديد . غير أنه على تطاول السنين رضى بتفاهة حظه واطمأن إلى خفاء شأنه . فهو ينظر الآن إلى الراقصين واللاغطين بشعورٍ حزين دون أن ينطوى لهم على حسد .

ولعبت الموسيقى توقيعاً آخر للرقص ، وتقدم الشاب فون رابك بعد المطْلع إلى ضابطين من غير الراقصين ودعاهما إلى شوط بليارد . وغادر ثلاثتُهم القاعة . ولما كان ريابوفتش واقفاً خامل الوقفة لا يأتى عملا ، فقد أحس بضرورة الحركة مع من يتحركون فخرج فى أثرهم . واجتازوا حجرة المائدة ، ومروا بدهليز ضيق الجناب ممرّد الأرض ، ثم بغرفة كان فيها ثلاثة من الخدم ناعسون على أريكة فوثبوا متفززين ، و بعد أن جاسوا — فيما خيل إليهم — جميعَ غرف القصر ، دخلوا حجرة للبليارد صغيرة .

وهنا أخذ فون رابك والضابطان فى اللعب . وجاء ريابوفتش — وكان لا يعرف إلا لعبة الورق — فوقف إلى المنضدة ينظر إلى لعبهم الذى لا يدركه فى غير إقبال ولا احتفال . واللاعبون قد حلّوا أزرار معاطفهم وجعلوا يلعبون بمضارب البليارد ، ويصولون ويجولون ، مازحين هاتفين بمصطلحات غامضة . ولقد تجاهل الجميعُ ريابوفتش ، إلا حين يصطدم به لاعبٌ منهم أو يلمسه مضربُه ، فكان يلتفت إليه ويقول قولة موجزة « لا مؤاخذة » . ولم يمكث ريابوفتش حتى ينتهى اللعب ، فقد تملكه

الضجر وثقل عليه الإحساس بفضول وجوده فى هذا الموضع وقلة لزومه ، فصحّت نيته على الرجوع إلى حجرة الاستقبال فتحوّل وانصرف .

وفى أثناء رجوعه وقعت له واقعته ، وما أدراك ما هى ! ذلك أنه لم يذهب بعيداً حتى تبين له أنه قد ضلّ الطريق . فهو يذكر على وجه التحقيق الغرفة التى بها الخدم الثلاثة المهوَمون ، فلما أن مر بحجرات خمس أو ست ليس بها أحد بانَ له غلطُه ، فعاد أدراجه ثم عرّج على يساره ، فإذا هو فى غرفة تسودها ظلمةٌ ولم يسبق له أن مرّ بها ، فتردد لحظة ، ثم تقدم فى جرأة إلى أول باب وجده ففتحه ، فإذا به يجد نفسه فى ظلام دامس ، وكان بصيصُ نورٍ يتطرق من خَلَل بابٍ فى الطرف الآخر من تلك القاعة ، وصوت الموسيقى من بعيد يخفق مخفوتَ الصدى بنغمةِ رقص شُجية . وكانت النوافذ كنوافذ قاعة الاستقبال مفتوحةً على مصراعيها وشذا الحور والبنفسج والورد يفيض على الهواء

ووقف ريابوفتش متحيراً لا يدرى ما يفعل ، وظل السكون مخيماً على المكان برهة . وإذا بوقع قدمٍ متعجلة ، ومن حيث لا يحتسب — حفٌ ثوبٌ حريرى ، وهَمَس صوتٌ ناعم مبهور الأنفاس يقول : « وأخيراً ! » وطوّقت جيدَه ذراعان ناعمتان معطرتان هما حتماً ذراعا امرأة ، وأحس خداً دفئاً يلتصق بخده ، ثم قبلة رنّانة . على أن القبلة ما كادت ترنّ فى السكون المخيم حتى صرخت السيدة المجهولة صرخة عالية وولّت — كما خُيّل إلى ريابوفتش — مشمئزةً نافرة . وكاد ريابوفتش نفسه يصرخ ،

ثم هرع لا يلوى على شيء . ولما أن دخل قاعة الاستقبال كان قلبه يدق دقاً شديداً ، ويداه ترتجفان ارتجافاً ظاهراً جعله يشابكهما وراء ظهره . وكان أول ما ملكه من الشعور الخجلُ كأنما كل واحد فى القاعة قد عرف ما جرى له تواً من العناق والتقبيل . فقبع فى جلده وجعل يتلفت وجلاً . فلما آنس أن أصحاب الدار والضيوف على حالهم من الاطمئنان يرقصون ويسمرون ، تشجّع وأسلم نفسه لأحاسيس يبلوها للمرة الأولى فى حياته . لقد وقع ما لا عهد له بمثله . وإنه ليحس أن عنقه الذى طوقته ذراعان ناعمتان معطرتان منذ هنيهة رطبٌ ندىٌّ كالممسوح بالزيت ، وعلى خده عند شاربه الأيسر حيث موقع القبلة يتنمل بردٌ خفيف لذيذ كلذْع قرص النعناع . وهو من فرعه إلى قدمه فى غمرة من أحاسيس جديدة عجيبة ما تزال تشتدّ وتزيد

وشعر بأن لا بد له من أن يرقص ، ويسمر ، ويكرّ إلى الحديقة ، ويضحك ما شاء من غير حرج ، ونسى النسيان كله أنه أَفَكّ الكتفين ، لا ميسم له ولا جهارة ، ذو شارب مثل شارب الهر ، وبالجملة أنه « غُفْل الهيئة » — على حد وصفٍ له جرى يوما على لسان إحدى السيدات فسمعه عرضاً واتفاقا . ومرت مدام فون رابك فابتسم لها ملء شدقيه متلطفاً غاية اللطافة . فأقبلت عليه ونظرت إليه متسائلة . فقال وهو يصلح عويناته : « ما أبدع دارك ! »

فردّت مدام فون رابك على ابتسامته بمثلها ، وقالت إن الدار لا تزال

ملكا لوالدها ، وسألته عما إذا كان أبواه على قيد الحياة ، وكم مضى عليه فى الجيش ، وما السبب فى هزاله . وانصرفت بعد سماعها إلى أجوبته . على أنه مع انتهاء الحديث وانصرافها ظل يبتسم ابتسامة الرضى و يتأمل مبلغ لطف القوم من معارفه الجدد .

وفى العشاء كان ريابوفتش يأكل و يشرب فى حركة آلية ما يوضع أمامه ، ولا يسمع حرفا من الحديث الدائر حوله منصرفاً بكايته إلى حل ألغاز واقعته الروائية الغامضة . ماذا عسى يكون تفسيرها ؟ إن الأمر فيما يراه بديهى لا يعدو أن إحدى الفتيات تواعدت وحبيبها على اللقاء فى الغرفة المظلمة ، و بعد أن انتظرت برهة على غير جدوى صارت من الاضطراب وجهد الأعصاب بحيث التبس عليها ريابوفتش بحبيبها المنتظر ، ويشفع لخطئها أن ريابوفتش عند ولوجه الغرفة المظلمة توقف متردداً كأنما هو أيضاً على موعد . لقد برح الخفاء واتضح المعمىّ حتى هنا .

« ولكن أىّ الفتيات هى ؟ » تردد هذا السؤال فى خاطره ، فجعل يتصفح وجوه النساء . إنها لا شك من الصبايا الغريرات ، لأن العجائز لا يتورطن فى مثل هذه المغامرات . ثم إنها ليست من خادمات القصر ، فذلك ثابت ثبوتاً لا يجوز الغلط فيه من حفيف ثوبها الحريرى ومن عطرها وصوتها .

ونظر أول ما نظر إلى الفتاة ذات الثوب البنفسجى فأعجبته وراقت فى عينه ، فإن كتفيها وذراعيها جميعاً سويّة الخلْق مفرغة فى قالب الجمال، ولها وجه

ذكيّ المحيّا وصوت ساحر . فضرع إلى الله أن تكون هي . غير أنها ابتسمت ابتسامتها الماكرة ، فتقلّص أنفها الطويل وبدت أكبر سناً .
فزوى ريابوفتش نظره عنها إلى الشقراء ذات الثوب الأسود وهي أصغر سناً وأكثر بساطة وصدقاً ، ولها طُرَرٌ على جبينها تسبي اللب ، وكانت ترتشف قدحها في لطف يفوق الوصف . فتمنى ريابوفتش أن تكون هي — ولكنه سرعان ما لحظ في وجهها فرطحة ، فانثنى ينظر إلى جارتها ...

« إن الأمر مشكل لا حيلة فيه ! » . وفكر ملياً : « لو أخذتَ ذراعي الفتاة ذات الثوب البنفسجي وكتفيها ، مضافاً إليهما خصائل الفتاة الشقراء وعينا الفتاة الجالسة إلى يسار لوبتكو ، فعندئذ — »

ولما تمّ له تأليف صورةٍ من جملة هذه المحاسن تجلّى له منظر الفتاة التي قبّلته . ولكنه غير واجدٍ لها في المجلس أثراً .

وانتهى العشاء . وقام الزوار وهم مِلاء نشاوى فودعوا الداعين . وكرر صاحب الدار وصاحبتها الاعتذار في عدم احتجازهم للمبيت . وجعل الجنرال يردد : « إني جد مسرور ! جد مسرور أيها السادة ! » وكان في لهجته هذه المرة رنة الصدق . ولا جرم فإن تشييع الضيف المرتحل أروح للنفس من استقباله بالترحاب وهو غير مرحَّب به . إنني جد مسرور حقاً ! وآمل ألا تحرموني من الزيارة في العودة . أرجوكم — مع رفع الكلفة . أيّ طريق أنتم الآن سالكون ؟ أتصعدون الربوة ؟ لا ، بل انحدِروا واجتازوا الحديقة. هذه الطريق أوجز »

وأخذ الضباط برأيه . ولا غرو بعد الجلبة والأنوار الساطعة في الدار

أن ظهرت لهم الحديقة مظلمةً ساكنة . فظلوا حتى بابها الجانبي الصغير سكوتاً لم يخرجوا عن صمتهم . لقد كانوا طربين ثملين جد مبسوطين إلا أن ظلام الليل وسكونه كانا يبعثان على مناجاة النفس وسبحات الفكر . وجرى فى خواطرهم جميعاً مثلما جرى فى خاطر ريابوفتش هذا السؤال : « أوَ يأتى يومٌ يكون لى فيه مثل فون رابك دارٌ كبيرة ، وأسرة ، وحديقة ، وتسنح لى مثلُ هذه الفرصة للتلطف مع الناس ولو غير مخلصٍ والوليمةِ لهم حتى يصدروا ملاءً نشاوى مبسوطين ؟ »

فلما أن استدبروا الحديقة انطلقوا جميعاً يتحدثون وتفجروا يتضاحكون لغير سبب . وكانت الطريق التى سلكوها تفضى أمامهم إلى النهر فى غير التواء . ثم تجرى والنهرَ ، مطّردة معه فى محاذاته ، تداور ما يقوم على ضفته من خمائل وشعاب وأشجار صفصاف بأفنانه المتدلية . وكانت الطريق لا تكاد تبين ، والشاطىء الآخر مغرَقا فى ظلمة حالكة . وكان يتراءى فى سواد الماء أحيانا نجومُ السماء ، ولولاها ما كانوا يتمثلون مسيل العباب وسرعة جريانه . وفى العدوة عبر النهر كان يزقو طائرٌ وسنان ، وفى بعض الخمائل على مقربة منهم كان يهتف بلبلٌ رافعاً عقيرته غير حافل بجمعهم . فتألّب الضباط واقتحموا الخميلة ولكن البلبل ظلّ على حاله ماضياً فى غنائه .

وردد الضباط معجبين : « لله صفاقته ! إنه لا يحفل بنا فتيلا ، هذا المستهتر المتصابى ! »

واستأنفوا المسير ، حتى إذا قاربت الرحلة آخرها ، أصعدت الطريقُ إلى الربوة وأفضت بهم إلى السكة العامة غير بعيد من رحبة الكنيسة .

وكان المرتقى قد نال منهم وبَهَرَ أنفاسهم فتهالكوا على العشب وراحوا يستجمّون ويدخنون . وكان يلتمع ضوء أحمر كامد فى الشاطىء الآخر من النهر . ولما كان يعوزهم فى مجلسهم هنا موضوعٌ للحديث ، فقد جعلوا يتمارون ويتحاورون فى أمره أهو وَقود زينةٍ أو نور نافذة أو غير ذلك . وتطلّع ريابوفتش فيمن تطلع إلى الضوء ، فخيل إليه أنه يبسم ، وأنه يغمز له ، كأنه يعرف خبر القبلة

ولما أن بلغوا محلتهم بادر ريابوفتش إلى خلع حلته لا يلوى على شىء ، وآوى إلى فراشه . وكان شريكاه فى المرقد لو بتكو والملازم مرزليا كوف وهو رجل طويل الصمت ، ظاهر الرصانة ، وله سمعة بأنه من ذوى البسطة فى الثقافة والتحصيل ، ولا يُرى أينما ذهب إلا وفى يده رسالة « رسول أوربا » فهى أبداً معه، وهو أبداً يقرؤها ولا تنقضى له أبد العمر قراءةٌ فيها . وكان لو بتكو بعد خلع ثيابه يذرع المقصورة جيئة وذهابا نافد الصبر ، وقد أرسل الخادم فى طلب جعة له . وأما مرزليا كوف فاضطجع ، وأقام الشمعة على وسادته ، واحتجب رأسه وراء « رسول أوربا » كعادته

« ليت شعرى أين هى الآن ؟ » بهذا السؤال تحركت شفتا ريابوفتش مغمغماً يناجي نفسه وهو شاخصٌ إلى السقف المسود بالسناج .

وكانت رقبته لا يزال بها هذا الإحساس الرطب الندىّ كالممسوحة بالزيت ، وإلى جانب فمه لا يزال موقع القبلة يتنمّل بمثل برودة قرص النعناع ، وكان يلتمع فى ذهنه على التعاقب كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها،

والطرر المزرفنة على جبين الفتاة ذات الثوب الأسود وعيناها النجلاوان الصادقتان ، وما يلحق بذلك من خصور مائسة وأبراد موشّاة ومشابك مجوهرة . وعلى الرغم من مجاهدته فى إقرار هذه الصور الشاردة وتثبيتها ، فإنها كانت تلتمع وتغمز له ثم تزول . وأخيراً حال لونُها وانطمست رسومها فى ذلك الستار الكثيف الأسود الذى يخيم على أعين الناس عند ما تدبّ فى أجفانهم ثقلة الكرى ويرين عليهم النعاس . وأخذ يدوّى فى سمعه وقع أقدام معجلة ، وحفيف أثواب حريرية ، ورنين قبلة . واستولت عليه غبطة شديدة فياضة من غير ما سبب . وفيما هو مستكينٌ لهذه الغبطة مسترسل معها ، رجع خادم الملازم لوبتكو يخبر سيده أنه لم يجد إلى الجعة سبيلا .

فعاد الملازم يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو نافد الصبر مسلوب القرار

وتوقّف الملازم عند ريابوفتش ثم عند مرزليا كوف هاتفاً : « إنه لرجل أبله ! ليس يمتنع الحصول على الجعة إلا على المخابيل الأغبياء . وغْد ! »

فقال مرزليا كوف معقّباً ، وهو لا يرفع عن (رسول أوربا) عينيه : « الجميع يعلمون أنه لا سبيل إلى الجعة هنا »

فهتف لوبتكو : « أو تصدق ذلك ! يالله ، اقذف بى فى فيافى القمر فإنى لا ألبث خمس دقائق حتى أجد الجعة والنساء كليهما ! ولسوف أجدهما بنفسى هنا . لأكونن نذلاً ساقط الشرف إن لم أجدها ! »

وجعل يرتدى ثيابه على مهل ، وأشعل لفافة تبغ ، وخرج

ثم ارتفع صوته وقد وقف فى البهو منادياً « رابيك ، جرابيك ، لابيك .

فى سبيل الشيطان ! لست ذاهباً وحدى . ريابوفتش ، تعال معى نتمشى ! ما ذا ؟ »

فلما لم يجب أحد ، رجع أدراجه ، وجعل يخلع ثيابه على مهل ، ثم رقد . فتنهد مرزليا كوف ، وطرح (رسول أوربا) جانبا ، وأطفأ النور . وتمتم لوبتكو وهو ينفخ دخان سيجارته فى الظلام : « حسن ؟ »

وجذب ريابوفتش لحافه حتى ذقنه ، وتكوّر تحته كالكرة ، وأخذ يجهد مخيلته ليضمّ أشتات المناظر المتلألئة ويجعل منها صورة واحدة متماسكة ، ولكن الرؤيا تأبّت عليه وولّت عنه . ثم لم يعتّم أن غلبه النوم ، وكان آخر إحساسه قبل السبات أنه كان موضع ملاطفةٍ و إسعاد ومسرة ، وأن حياته دبّ إليها شيء غريب ، شيء عَجَبٌ مضحك ، ولكنه جميلٌ ومشرق على نحوٍ غير عادى . ولم يبرحه هذا الخاطر حتى فى أحلامه .

واستيقظ مع الصباح ، ورَنا كالمسحور إلى زجاج النافذة يتوهج كالذهب من شعاع الشمس الطالعة ، وأنصت إلى الضوضاء فى الخارج . وكان إحساسه بالنداوة فى عنقه و برودة قرص النعناع فى خده قد ذهب عنه ، ولكن الفرح بالليلة البارحة كان ملءَ جوانحه يسرى فى كل عرق من عروقه .

الصـــمت

« للروائى الروسى ليونيد اندريف »

(١)

فى ليلة مقمرة من ليالى أيار ، والبلابل يلعلع صوتها فى القمراء شادية مشجية ، أقبلت أولجا ستبانوفنا على زوجها الأب إجناتى وهو جالس إلى مكتبه . وكانت أسارير وجهها ناطقة بأمضّ الحزن وأوجعه ، والسراج فى يدها مهتزّ مرتجف . فلما دانته ، لمستْ براحتها مَنكبه وقالت مختنقة الصوت مجهشة .

— أبتاه ، لنصعد إلى ابنتنا ڤيروتشكا !

فتجهّم الأب إجناتى وقطب حاجبيه من فوق عدساته ولم يلتفت إليها ، وظل شاخصاً ببصره فى الفضاء طويلا حتى أُسقط فى يدها . فقلّبت كفها تقليب المهموم الجزِع ، وتهالكتْ على أريكة منخفضة هناك وقالت :

— ما أقسا كما كليكما !

قالت ذلك بصوتٍ متّئد وشدّدت على لفظ « كليكما » أبلغ التشديد وأفجعه ، وقد تقلص وجهها المطهّم الحنون بأمارات من الألم والعنت ، وكأنما أرادت أن تفصح بسيماها وأمارات محياها عن مبلغ ما تعانى من قسوة القوم : زوجها وابنتها .

وأرسل إجناتى ضحكةً فاترة ونهض . ثم أطبق كتابه وخلع عدساته ودسّها فى علبته وأطال التفكير مكتئباً . وقد استرسلت على صدره أجملَ استرسالٍ لحيةٌ جثلة وَخَطها المشيبُ ، وكانت تعلو وتهبط فى هوادة مع أنفاسه المرددة العميقة .

و بعد هنيهة قال : « حسن . نذهبُ »

فهبّت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوتٍ متوجس متزلّف : « و إنما رجائى إليك يا أبتاه ألا تعنفها . أنت تعرف طباعها »

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى إليها خشبي ضيق ، فكان ينيخ و يَصرّ تحت أقدام الأب إجناتى وخطاه الثقيلة . وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه أن ينحنى حتى لا تصطدم هامته بسقف السلم . وكانت زوجته فى ثو بها الأبيض فلمس رُدْنُها وجهه فانقبضت أسار يره وعبس متململا متبرماً . وولج الغرفة وراءها وهو موقن أنهما لن يخرجا من الحديث عن ابنتهما ڤيرا بأدنى طائل .

وقالت ڤيرا : « يا لله ، هذا أنتما ؟ » ورفعت إلى عينيها ذراعاً عار ية . و بقيت ذراعها الأخرى على اللحاف الصيفى الأبيض لا تكاد تتميز عنه لفرط بياضها وشفوف لونها و برودة مجسها .

فابتدرتها الأم بندائها « فيروتشكا ! » وخنقتها العبرة فسكتت . وقال الأب إجناتى وهو يجاهد للتلطيف من خشونة صوته وجفوته :

— « ڤيرا ! خبرينا ماذا بك ؟ »

فظلت ڤيروتشكا صامتة .

وعاود الأب إجناتى خطابه « ڤيرا ! أترين أمك وأنا غيرَ أهلٍ لمناجاتنا بأمركِ والاستراحة إلينا بذات صدركِ ؟ ألسنا نحبك ؟ وهل لك من أحدٍ هو أقرب إليك وأمسّ بك منا ؟ بثّى إلينا شجوكِ ، وصدقينى — أنا الشيخ المجرب — أنك واجدةٌ بعدها بعض الراحة، وكذلك نحن . انظرى إلى أمك العجوز وكيف عذابها . ڤيروتشكا ! وأنا ... » وهنا تهدّج صوته وكأنما انشعب شىء فيه وانصدع شطرين « .. وأنا ، أيهون ذلك علىّ ، تحسبينه يهون ؟ كأنى لست أبصركِ نَهْبَ لوعة ! ... ولكن ما هى ؟ وأنا ، أبوكِ ، تتركيننى على جهلٍ بها ، أيصح هذا ؟ »

ولكن فيروتشكا ما برحت صامتة . والأب إجناتى جالس حيالها يعبث بلحيته ويمسح عليها فى تحفظٍ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالنتف أصابعُه المضطربة من حيث لا يشعر . ومضى فى حديثه يقول :

— « خالفتِ مشيئتى وذهبت إلى بتروغراد — فهل لعنتُك على مخالفتك إياى ؟ أكنتُ عليك يوماً بالمال ضنيناً ؟ أتقولين إنى لم أكُ برًّا بك ، حَدِباً عليك ؟ إذن ، لِمَ لا تتكلمين ؟ أنظرى ، أى خير أصبتِ من بتروغراد ! »

وانقطع الأب إجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل لخاطره كالعيان بناء من الجرانيت هائل رهيب ، حافلٌ بأخطار راصدة كامنة ، مكتظ بخلْقٍ غريبةٍ أطوارُهم ، جاسيةٍ مشاعرُهم . وهنا ذهبتْ فيروتشكا وحيدة ضعيفة،

وهنا كان تلفُها وضياعها . فجاشت في نفس الأب إجناتي نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة ، تشوبها النقمةُ على ابنته ، تلك التي ما فتئت صامتة ، صامتة في تشبث وعناد .

أما هي فأجابته بجفاء وقد أطبقت جفنيها :

— « لا دخل البتة لبتروغراد فيما أنا فيه . على أنه لا شيء بي . والأولى أن تذهبا للنوم ، فالساعة متأخرة »

فأنّت الأم : « فيروتشكا ! اطمئني إليّ بسريرتك يا بنيتي ! »

فقاطعتها فيروتشكا نافدة الصبر : « كفي يا أمي ! »

وجلس الأب إجناتي على مقعد وجعل يضحك ، ثم قال متهكما :

— « حسن والله ! ليس في الأمر شيء بعد هذا كله ؟ »

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة ، وقد أقامت صَعْدَتَها واستوفزت في فراشها :

« أبتِ ! أنت تعلم حبي لك ولأمي ، ولكني إنما أشعر بخمود شديد ، وسيزول هذا كله . . . والحق أنه أولى لكما الذهاب للنوم ، وإني لراغبة فيه أيضاً . غداً ، أو في يوم من الأيام ، سيكون لنا متسعٌ للحديث »

فهبّ الأب إجناتي قائماً قومة واحدة حتى ارتج مقعده وصدم الحائطَ وراءه . وأخذ بذراع زوجته قائلا : « لنذهب »

فأنّت هذه « فيروتشكا . . . ! »

فصاح بها الأب إجناتى : « قلت لك لنذهب . وإذا كانت قد نسيَت الله ، فهل ننساه مثلها ، ولمــاذا ! »

واجتذبها للخروج فى شىء من العنوة والقسر . وكانت — وهما يهبطان السلم — تجرّ أقدامها جراً يزداد تثاقلا وضعفاً . وغمغمت المرأة فى همسةٍ مغضبة : « أفّ ! أنت أيها القس الذى جعلتها كذاك . عنك دون سواك أخذت هذا الطبع . إنك لمسئول عنه . آه يا ربى ، ما أتعسنى ! »

وجعلت تولول واكفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم تعد تتبين مواقع خطاها، بل كانت تاركةً قدمَها تهبط الدرج كأنه هاوية ترغب فى التردّى فيها .

ومن ذلك الحين صحّت عزيمة الأب إجناتى ألا يكلم ابنته . وكأنما لم تفطن الابنة الى هذا التغيير منه ، وظلت كعهدها تضطجع آونة فى غرفتها وآونة تعمد إلى الخروج . وكانت كثيراً ما تمسح بالراحتين عينيها كأن عليهما غشاوة . ولكن صمت الأب وابنته كان يثقل على الأم ويكرُبها ، فباتت وهى بالأمس المولعة بالمزاح والضحك أبعدَ أهل الأرض عنهما ، فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل .

كانت فيروتشكا — كما تقدّم القولُ — تخرج أحياناً تتمشى وتعود . فحدث بعد أسبوع من المقابلة الآنفة الذكر أن خرجت خروجها المعتاد كل مساء . وشاء القدر أن تكون هذه آخر رؤيتهما لها حية ، فانها فى ذلك المساء ألقت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين .

***

وقام الأب إجناتى بدفنها ، ولم تشهد زوجتهُ حفلة الصلاة عليها فى الكنيسة لأن صدمة نعى فيروتشكا أصابتها بالفالج ، فقدماها وذراعاها ولسانها جميعاً مشلولةُ الحركة . فبقيت طريحة الفراش فى غرفة محجوبة الضوء . وعلى مقربة منها تدق الأجراس فى القباب معْولة نادبة . وإنها لتسمع موكب الجنازة خارجًا من الكنيسة وتسمع المرتلين ينشدون فى مرورهم أمام المنزل ولقد همّت لترفع يدها وترسم إشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وأرادت أن تقول « الوداع يا فيروتشكا » ولكن لسانها لَصِبَ فى فمها هامداً مورّماً ثقيلاً . وهكذا بقيت طريحة بلا حراك حتى ليحسبها الرائى هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان .

وشهد الجنازة فى الكنيسة جمعٌ حافل من معارف الأب إجناتى والغرباء عنه . وكلهم مترحمٌ على فيروتشكا متوجع لمصرعها . وهم فى الوقت نفسه يتتبعون حركات الأب إجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بها على عميق حزنه ولاعج جواه ، إذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما فى خلقه من عنجهيّة وعجرفة ، ولشدته وصرامته مع من أذنب منهم ثم أراد على يديه التوبة والإنابة ، فضلا عن أنه حسود جشع لا تعرِض له فرصة إلا انتهزها ليتقاضى من دائرته أكثر من حقه . فهم جميعاً يودون التشفى برؤيته متألماً كسيراً ، يودون أن يروا منه الإقرار على نفسه بذنبه المضاعف فى مصرع ابنته — بصفته أباً فظاً غليظ الطبع ، ثم بصفته قساً ظهر عجزُه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة . وهم قد أمعنوا فى ملاحظته والتطلع

إليه . ولكن الأب إجناتى كان قد آنس اتجاه أنظارهم أجمعين إلى كاهله العريض المكين ليروا كيف تنحنى قنـاته ويطأطىء إشرافه تحت وقرِ الفادحة ، فلم يأل جهداً فى نصب قامته وإقامة صعدته . وكان فى تلك الساعة أقل تفكيراً فى فقد ابنته منه فى صون كرامته :

وألمع كرزنوف وقد أنغض رأسَه إلى ناحيته : « قس صَلْبٌ منيع » وكرزنوف هذا نجارٌ يدين القس بثمن بعض الأطُر .

وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة الشطاط سار الأب إجناتى إلى المدفن . وعلى هذه الحال نفسها عاد منه ، حتى إذا كان عند باب غرفة زوجته انحنى كاهله قليلا — وقد يكون سبب ذلك أن الباب دون قامته ارتفاعاً . وكان الرجل قادماً من وضح النور فلم يتبين وجه زوجته عنـد دخوله عليها ، فلما أن تبينه وجدها هادئة . ووجد أنه لا دمع فى عينيها ، وليس بهما نقمةٌ ولا حزن ، فهما خرساوان صامتتان صمتَ ألمٍ وعناد ، وكذلك كان جسمها البدين المتراخى المسنَد إلى حاجز الفراش .

فسألها : « والآن ، ماذا ؟ كيف حالك ؟ »

ولكن شفتيها ظلتا خرساوين وعينيها ما زالتا صامتتين . فوضع الأب إجناتى راحته على جبينها ، فاذا هو خَصِرٌ رطب . ولم يبد من أولجاستبانقنا أدنى دلالة على أنها أحست لمسته . فلما أن رفع راحته عن جبينها كانت عينان غائرتان سوداوان تشخصان إليه منها دون أن يطرف لهما هدب ،

وتكاد تكون حدقة العينين فاحمة كلها بسبب تمدد إنسانهما ، ولم يكن فيهما حزن ولا نقمة .

فغمغم الأب إجناتى ، وقد بردت أطرافه وارتعدت فرائصه : « حسن ، أنا ذاهب إلى غرفتى »

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كلّ شيء كعهده نظيفٌ مرتب والمقاعد الكبيرة مسربلةٌ فى أغطيتها البيضاء كأنها الموتى فى أكفانها . وفى إحدى النوافذ قفص معلّق ، ولكنه كان خاويا وبابه مفتوح .

ونادى الأب إجناتى « نستاسيا ! » فبدا له أن صوتَه أجشّ ، وأحس أنه يسيء صنعاً بعُيد جنازة ابنته أن يرفع الصوت إلى هذا الحد فى تلك الحجرات الهادئة . فعاود النداء بصوت أكثر تلطفاً وخفوتاً : « نستاسيا ! أين الكنارى ؟ »

فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة النحيب منتفخٌ وارم ولونه قانٍ كالجزر وأجابت بجفاء : « لا أدرى . لقد طار »

فقطب الأب إجناتى حاجبيه مغضباً ، وصاح بها : « وكيف تركته يطير ؟ »

فأجهشت تبكى وتمسح دموعها بذوائب المنديل المعصوب به رأسها . وقالت : « إنه الروح الجميلة العزيزة لسيدتى الصغيرة الراحلة ، فكيف لى بحبسه ؟ »

وخيل إلى الأب إجناتى نفسه أن الكنارى الصغير الفاقع اللون السعيد

الذى كان دأبه التغريد شامخاً برأسه قد كان حقيقةً روح فيروتشكا ، وأنه لو لم يطر الكنارى لما صحّ القول بموت فيروتشكا . فاشتدت نقمته على الطاهية وصرخ بها :

« اغربى عن وجهى ! » ولما لم تبادر إلى الباب تواً زاد : « مجنونة ! »

(٢)

ومنذ يوم الجنازة والصمتُ مخيم على هذه الدار الصغيرة . وليس المراد بالصمت هنا السكون . فالسكون إنما هو عدم الجلبة . وأما الذى هنا فهو ، الصمت ، وذلك أنه يُشعر أن الذين التزموه فى مقدورهم الكلام لو شاءوا . وهذا الشعور يقع فى نفس الأب إجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقى نظرتَها الشاخصة ملحةً ثقيلة حتى لكأنما استحال هواء الغرفة رصاصاً يضغط رأسه ويُنقض ظهره . وهذا الشعور يقع فى نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذى انطبع عليـه صوتُها الحى ، وحين يتطلع إلى كتبها و يقبل على صورتها — وهى صورة لها بالألوان جاءت بها معها من بترو غراد ، ولقد أخذ على نهج خاص به يتفرّس فيها .

فهو يقبل أول ما يقبل من الصورة على عنقها يتأمله وهو منها بمطرح الضوء ، فيخيل إليه أن عليه فى الصورة خدشاً كالذى كان على جيد فيروتشكا الميتة . و إنه لفى حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وهو فى كل مرة يعمل الفكر

للاهتداء إلى سببه وعلته . فلو أن القطار هو الذى صدمها فى هذا الموضع لكان هشّم رأسها بأكمله ، ورأس قيرا الميتة سليم كل السلامة .

أترى بعضهم وطأها برجله وهم يرفعون الجثة لحملها إلى المنزل ، أم أنه أثر ظفرٍ خدشها من غير قصد ؟

ولكن إطالة التفكير فى تفصيل مصرعها كان يشقّ على الأب إجناتى ويروعه ، فيتحوّل عندها إلى تأمل عينيها فى الصورة . وكانتا سوداوين نجلاوين ، وكان لأهدابهما الوطفاء ظلٌّ وريفٌ تحتهما يزيد بياض المقلتين نصوعاً فتبدو العينان وكأنهما فى إطارين من أُطُر الحداد السود . وقد جعل لهما المصور المجهول — وهو لا شك من الفنانين الموهوبين — معنى غريباً . فقد كان يخيل أن بين هاتين العينين وبين ما تقعان عليه غشاءً رقيقاً شفيفاً ، كما تعلو غطاءَ معزف البيانو اللامع السوادِ غشاوةٌ من غبار الصيف خفيفة لا تكاد تبين ، وهى على خفائها تكمد من لألاء الخشب المجلو . وكان الأب اجناتى فى حيثما وضع الصورة تابعتْه عيناها ، غير ناطقتين ، بل أبداً صامتتين . وبان للصمت فى المنزل وجودٌ ظاهر حتى ليخيل أن فى الإمكان سماعه . وما زالت الحال على هذا المنوال حتى وقر فى نفس الأب إجناتى أنه يسمع الصمت .

وكان الأب إجناتى بعد تأدية القربان المقدس فى كل صباح يقصد إلى قاعة الجلوس ، ويأخذ بصرُه فى لمحة واحدة قفصَ الكنارى الخاوى وسائر الأثاث فى ترتيبه المعهود . فيجلس فى أحد المقاعد الكبيرة ، ويطبق

جفنيه ، ويستمع إلى صمت المنزل . وكان أمراً عجباً . فالقفص صامت فى وداعة ولطف ، وفى هذا الصمت كان يحس الأسى والدموع والضحك الفقيد البعيد جميعاً . ثم صمت الزوجة ، وكان مع قيام الجدران من دونه وأثر اعتراضها فى تخفيف وطأته لايزال ملحاً ثقيلاً كالرصاص — ومرعباً ، مرعباً حتى ليأخذه بردُ القرور فى أشد الأيام وقدةَ قيظٍ . أما الابنة فكان صمتها لا آخر له ، بارداً كالقبر ، غامضاً كالموت ، ثم كان الصمت كأنما يشقى بنفسه ، وكأنما يتلهف على التحول إلى نطق ، لولا أن شيئاً له قوة الآلة وجمودها يمسكه عن الحركة ويمده كامتداد السلك . وإذا السلك يهتز من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد ، ويصدر عنه صوت ناعم خافتٌ حنون . فيحفز الأب إجناتى حافزٌ من الرغبة المشوبة بالرهبة إلى تسقّط بادرة هذا الصوت ، فيشد بكفيه على جانبيْ المقعد ، ويمد رأسه متسمعاً مترقباً بلوغَ الصوت إليه ، ولكن الصوت ينقطع وينطوى فى غمرة الصمت .

ويهتف الأب إجناتى وقد ركِبه الغضب: «عبثٌ باطل وأضغاث أحلام» ويهبّ من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كعهده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة فى ضحّ الشمس. والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الأطراف ممرّدة . وفى الناحية الأخرى يقوم سورٌ حجرى ممدود لا نوافذ له وهو لمخزن من مخازن البضاعة . وكانت في الركن مركبةٌ واقفة كأنها نُصُبٌ من الطين قائم ، ولم يكن السبب

مفهوماً فى استمرار وقوفها هناك مع أن الساعات الطويلة تنقضى ولا يظهر عابرٌ واحد فى هذه الطريق .

(٣)

وكان على الأب إجناتى فى خارج البيت أن يتحدث إلى الكثيرين : مع مرءوسيه من رجال الدين ، ومع السكان فى دائرته الكنسية فى أثناء قيامه بفرائضه ، وأحياناً مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثورٌ ومحمود . ولكنه كان حين يؤوب وتحتويه غرفتُه يخيل إليه أنه قضى سحابة نهاره صامتاً . ذلك أنه لم يكن ليتحدث إلى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أمُّ المسائل وأهمها والتى تهيج كل ليلة بلابلَه وتلعج خاطره : فيمَ ميتة فيروتشكا ؟ ؟

ولقد أبى الأب إجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حلّ هذه المعضلة ، ولم يزل على اعتقاده بامكان كشفها وجلاء غامضها .

فكان يحيى لياليه مسهداً تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل إلى فراش فيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق إليها الرجاء أن « تكلمى ! » . فاذا بلغت به الذكرى إلى هذه الكلمة تمثلت له بقيةُ المشهد على خلاف ما وقع . ولقد ادخرت عيناه المطبقتان فى ظلامهما صورةً حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تتمثلان فى جلاء فيروتشكا وقد استوفزت فى فراشها وقالت مبتسمة — ولكن ماذا قالت ؟ .. إن تلك

الكلمة التى لم تلفظها ، والتى بها جلاء المشكل كله ، تلك الكلمة تبدو كأنها قريبة ، جد قريبة . فلو أنه يرهف سمعه ويُسكت خفقان قلبه ، إذن ، إذن لسمعها — ولكنها فى الوقت نفسه كانت بعيدة بلا حدٍ وبغير أمل .

عندها يهبُّ الأب إجناتى من فراشه ويبسط يديه مضمومتين معاً فى توسل وضراعة منادياً : « فيروتشكا ! »

ولا جواب على ندائه إلا الصمت .

وفى ذات مساء قصد الأب إجناتى إلى غرفة أولجا اسبانفنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أسبوع ، وجلس عند فراشها وهو مشيحٌ بوجهه عن ناظريها الشاخصين الفاجعين ، وقال :

« أيتها الأم ! أريد التحدث معك عن فيروتشكا . أتسمعين ؟ »

فظل ناظراها صامتين ، فرفع الأب إجناتى عقيرته واشتدّ مثل شدته مع المعترفين فى خطابها :

« أعرف أنك تحملين علىّ الذنب فى مصرع فيروتشكا . ولكن مهلا ! أكنت أقل منك حبًّا لها ؟ إنك لغريبة الرأى — لقد كنت متزمّتاً متشدداً ، ولكن هل حال ذلك بينها وبين ما شاءت ؟ لقد تغاضيت عما لى عليها من حق الوالد فى الحرمة والاعتبار ، فطأطأتُ صاغراً حين ارتحلتْ — غير حافلة نقمتى واستنزال لعنتى — إلى هنالك . وأنت — أيتها الأم — ألم تضرعى إليها باكية تناشدينها البقاء ، حتى أمرتُك

أن تكفى ؟ أمسئول أنا عن أنها وُلدت قاسية القلب ؟ ألم أعلّمها ما ينبغى علمه عن الله والطاعة والحب ؟ »

وأدار الأب إجناتى ناحية زوجته نظرةً خاطفة إلى عينيها الشاخصتين ، ثم أشاح مستأنفاً :

« ماذا كنت صانعاً معها ، وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها . أكنت آمرها ؟ لقد أمرتها . أكنت أستعطفها ؟ لقد استعطفتها . ماذا ؟ أترين أنه كان علىّ أن أجثو عند قدمىْ الصبية راكعاً وأنتحب كالمرأة العجوز ؟ ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها ما أصابها ، لست أدرى . يا لها من ابنة عاقّة ، لا قلب لها !

ودقّ الأب إجناتى على ركبتيه بجمع يديه .

« لقد تجرّدتْ من الحب — هو ذاك . إنى أعرف ما كانت تصفنى به : مستبدٌ غشوم . وأنت ، كانت تحبك ، أليس كذلك ؟ أنت التى بكيت ، و . . . تذللت ؟ »

وضحك الأب إجناتى ضحكة خافتة :

« تحبك ! أى نعم ، وهى بِرًّا بك قد اختارت هذه الميتة ، ميتة شنيعة شائنة ! فماتت على القَضَض والحصى المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت على الأقذار — كالكلب ، جندلته رفسةٌ بالنعل على خطمه »

وغمغم الأب إجناتى بصوت هامس أبحّ :

« ما أشد خزيي ! إني ليتولاني الخزي إذا خرجتُ إلى الطريق ! يتولاني إذا خرجت من المحراب ، يتولاني بين يدى الله ! يا لك ابنة قاسية خسيسة . إنك لتستحقين اللعنة فى قبرك . »

وألقى الأب إجناتى على زوجته نظرة ثانية ، فإذا هى مغشى عليها ، ولم تفق من غشيتها إلا بعد ساعات . ولما أفاقت كانت عيناها صامتتين ، هيهات يعلم الناظر إليهما إن كانت فقهت أو لم تفقه مقال الأب إجناتى لها.

وفى تلك الليلة — وكانت ليلةً مقمرة من ليالى تموز ، ساجية دافئة يخيم السكون عليها — قام الأب إجناتى يدب على أطراف قدميه حتى لا تسمعه الزوجة ولا ممرضتها ، وصعد السلم إلى غرفة فيروتشكا . وكانت نافذتها من يوم وفاة ابنته لم تفتح ، وكان فى جوها حرارة وجفاف تشوبهما رائحةُ احتراقٍ خفيفة من حديد السقف المستهدف طوال النهار لوقدة الشمس . وكان إحساس الوحشة والإقواء مخيما على الغرفة التى طالت غيبة الإنسان عنها ، وكانت الألواح الكاسية لجدرانها وسائرُ ما بها من الأثاث وغيره يتفاوح منها مثلُ ريح العطن والانحلال .

وكان ضياء القمر ينفذ من زجاج النافذة وينبسط على أرض الغرفة كشريطٍ وضّاء ، وكانت تعكسه المناضدُ بطلائها الأبيض الناصع فينير أركان الغرفة بنورٍ كليل شعشانىّ ، ويبدو الفراش الأبيض النظيف بوسادتيه الكبرى والصغرى وكأنه شبح من عالم الأطياف . وفتح الأب إجناتى النافذة . فاندفع إلى داخل الغرفة تيارٌ غَمَره من الهواء النقى ،

يستروح فيه الناشقُ تراب النهر المجاور وعبق الزيزفونة المزهرة ، ويحمل إلى المتسمّع المصغى نشيداً خفيضاً لعله لقومٍ فى قارب على النهر يجدّفون ، وفى تجديفهم ينشدون .

ودبّ الأب إجناتى عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث صوتاً . ودنا من الفراش الخاوى ، وخرّ مكباً على وجهه فوق الوسائد يضمها — فى حيث كان متوسّد وجه فيروتشكا .

وظل على هذه الحال طويلاً . . . وتعالى النشيد فى الخارج ، ثم أخذ يخفت حتى لم يعد مسموعاً ... والأب إجناتى لا يزال فى مكانه ، وشعره المرسل مشعّث مهدّل على كتفيه وعلى الفراش .

ودلف القمر فى مسراه مجتازاً ، فأظلمت الغرفة واستفاضت العتمة ، ورفع الأب إجناتى رأسه وهتف بصوتٍ أفرغ فيه كلّ حبه الذى كبتَه وأطال كظمه بلا بثٍّ ولا تصريح . وكان يهتف وينصت لما يقول ، وكأن المنصت ليس هو وإنما هى ڤيرا : « ڤيرا ، يا ابنتى ! أتدركين معنى ابنتى ؟ يا بنيّتى ! مهجتى ! دمى ! حياتى ! هذا أبوك ، أبوك الشيخ المسكين وقد علاه الشيب وخذلته القوى » . وانتفض مَنكباه ، وسرتْ رجفة فى كيانه الضليع من فرعه إلى أخمص قدمه . ثم همس متهدّجاً فى صوت رفيق لين كأنما يناغى طفلة :

« أبوك الشيخ المسكين يسائلك . نعم يا ڤيرا إنه يستعطفك . إنه ليبكى

ولم يكن البكاء قط من شأنه . إن ألمك يا بنيتى ولوعتَك يحزّان فى نفسى كما لو كانا بى . بل أشد وأنكى»

وهزّ الأب إجناتى رأسه :

« أشد وأنكى ، يا ڤيرا . وما يكون الموت عندى ، أنا الشيخ ؟ ولكن أنتِ ... آه لو علمتِ ما كان من رقتك ، ولطافة بنْيتك ومبلغ حيائك وتهيّبك ! أتذكرين إذ وخزَت إبرة أصبعك ونضح منها الدم فطفقتِ تصرخين . نعم يا بنيّتى ! وكنت تحبيننى حقاً ، بل تشغفين بى حباً ، أعلم ذلك . وكنتِ فى كل صباحٍ تقبلين يدى . تكلمى ، خبرينى عن هذا الذى يحزنك — فإنى بهاتين اليدين خانقٌ حزنك . إنهما ما برحتا قويتين ، هاتين اليدين ، يا ڤيرا »

واهتزت خصائلُ شعره .

« تكلمى ! »

وشخص بعينيه إلى الحائط ، و بسط يديه ، وصاح :

« تكلمى »

ولكن الغرفة صامتة . ثم حملت الريحُ إليها من بعدٍ سحيق هتفاتٍ مديدةً ومقتضبة من صفير قاطرةٍ عابرة .

فأدار الأب إجناتى عينين اتسع حملاقُهما كأن أمامه شبح الجثة مبتورةِ الأشلاء ممثلاً لعيانه . ثم نهض من ركوعه على مهلٍ متسانداً ، ورفع كالذاهل إلى رأسه يداً مشنّجة ، منفرجة الأشاجع ممدودة الأصابع .

ومضى الأب إجناتى إلى الباب ، وفى خروجه همس فى حدة :

« تكلمى ! »

فكان جوابه الصمت .

— ٤ —

فى اليوم التالى تناول الأب إجناتى غذاءه على انفراد مبكراً ، ثم أخذ سمْتَه إلى المدفن لأول مرة بعد وفاة ابنته . وكان المدفن موصداً مهجوراً لا تحس فيه نأمة ، حتى لكأنّ النهار القائظ لفرط هدوئه ليلةٌ منيرة إضحيانة . على أن الأب إجناتى نَصَب قامته كدأبه مجاهداً ، وأدار بصره من جانبٍ لآخر بجفوة وصرامة ، وهو يزعم أنه كعهده بنفسه لم يتغير . ولم يفطن إلى تخاذلِ طارىء فظيع يفتّ فى ساقيه ، ولم يرَ إلى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شيباً كأنما أصابها صقيعٌ هتون . وكانت الطريق إلى المدفن طويلة ممتـدة ، مستقيمة الامتـداد ، آخذةً فى ارتفاعٍ لطيف المرتقى ، وفى آخرها باب المدفن من خشب الزيزفون يظلله سقفٌ أَبيض ملتمع فكأنه فم مسودّ الحلق فاغر الشدقين وعلى حافته أنيابٌ قواطع لوامع .

وكان قبر فيرا موغلاً فى جوف المدفن بعد أن تنتهى الماشى المفروشة بالحصباء . فكان على الأب إجناتى أن يطيل الطواف فى مسالك ضيقة مجتازاً بمنعرجات من كثبان صغيرة من الأجداث ناتئةٍ بين الحشائش مهملة منسية من الجميع . وكان يلتقى هنا وهناك بأنصابٍ متداعية حائلة اللون

مخضرّة من القدم ، وحواجز مقوّضة متهدمة ، ورجامٍ من الحجارة ثقال ضخام ملقاة تبهظ صدر الثرى كأن بها عليه حقداً كحقد الشيخ باسراً متجهماً .

وعلى مقربة من بعض هذه الرجام ، كان قبر فيرا . وكان المدر المعشوشب فوقه مصفرًّا ذابلاً على حداثة عهده وعلى حين كان ما حوله كله يانعاً ناضراً.

وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، وإلى ناحية منهما خميلة ممتدة من شجيرات البندق وارفة الظل تبسط أفنانها اللينة الأعطاف بأوراقها المخشوشنة الوبراء على القبر .

فجلس الأب إجناتى على ضريحٍ تجاه ضريح ابنته وهو يتنهد بين الفيْنة والأخرى . وجعل يتلفت حواليه ، وألقى نظرة على صحراء السماء الضاحية. وكان قرص الشمس المتقد معلقاً فى مكانه جامداً بغير حراك . فأحس الساعة فقط عمقَ ما يرين على المدفن من سكونٍ ليس كمثله سكون ، والريح هامدة لا تهفو لها نسمةٌ فى الأوراق الجافة الميتة . وقام فى خاطر الأب إجناتى مرة أخرى أن هذا ليس بالسكون ، ولكنه الصمت . وفاض الصمت ، فاض وطمّ حتى بلغ أسوار المدفن نفسها وتسوّرها متثاقلا وانساح يغمر المدينة . وأما آخرُه ، طرفُه الآخر ، فإنما هو هنالك، فى هاتين العينين السوداوين الشاخصتين المصرّتين فى تعنت وعناد على الصمت .

هز الأب إجناتى كتفيه ، وقد سرت البرودة فيهما . وسرّح نظره على

قبر ڤيرا . وطال تأمله لعيدان الحشائش القصيرة المصوّحة وقد كان انتزاعها من منابتها ببعض الرياض النَزِهَة الفيحاء فلم يتهيأ لها تأصل وترعرع فى هذه التربة الجديدة . ولقد عزّ على الأب إجناتى أن يعقل أنه من تحت هذه الحشائش هنا ، وعلى بعد بضعة أشبار منه ، ترقد ڤيرا . وبدا له أن تدانِي الشُّقة إلى هذا الحد أمر غير معقول . وإن نفسه ليخامرها من ذلك حيرة وتوجس غريب . فتلك التى تعوّد التفكير فيها على أنها طويت فى ظلام الأبدية السحيق طىّ الأبد ، كيف تكون هنا قريبة ؟ وإنه لعسير على الفهم أن تكون مع هذا القرب كله قد غابت عن الوجود وأنها لن تعود !

وخيل إلى الأب إجناتى أنه لو نبس بكلمة ، بالكلمة التى يكاد يحسها على شفتيه ، أو أنه لو أومأ بإشارة ، لأقبلتْ عليه من القبر ، ووقفت أمامه ممشوقة القد جميلةً كعهده بها . ثم إنها لا تقوم وحدها ، بل إن الموتى أجمعين الذين نحسّ بهم ونرتاع من رهبة صمتهم وبرْده ، كل هؤلاء أيضاً يقومون

وخلع الأب إجناتى قبعته السوداء العريضة الحاشية ، ومسح بيده على ذوائبه المشعّثة ، وهمس منادياً :

« ڤيرا ! »

ثم أوجس أن يكون بمسمعٍ منه غريب ، فاعتلى الضريح وتطلّع من فوق الصلبانِ . ولم يكن على القرب أحد ، فأعاد النداء رافعاً صوته :

« ڤيرا ! »

وكان صوته صوتَ الأب إجناتى المعهود من قديمٍ جافاً آمراً ، فكان عجيباً أن نداءً بهذه القوة يبقى بغير جواب !

« ڤيرا ! »

ومضى الصوت ينادى عالياً ملحاً . فلما أن سكت لحظة ، خيل للأب إجناتى أن جواباً غامضاً دوّى من تحت أطباق الثرى . فتلفت حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسلَ لحيته عن أذنيه وألصقهما على المدر المخشوشن الشائك فوق القبر ، ونادى :

« ڤيرا ! تكلمى ! »

فأحس الأب إجناتى وهو فزِعٌ أن شيئاً له برودة القبر قد نفذ إلى أذنه وجمد له عقلُه، وأن ڤيرا تكلمت — ولكن كلامها هو الصمت الطويل نفسه . وظل الصمت يزيد روعةً وهولا . ولما أن اجتذب الأب إجناتى رأسه عن الأرض ، ووجهُه شاحب كوجه الميت . خيّل إليه كأن الهواء يهتز وينبض بصمتٍ ذى صدًى رِنان، وكأن ريحاً عاتية ثارت على ذاك العثلِم المخوف . لقد أخذ الصمتُ بكظمه وأزهق أنفاسه ، وجعلت موجاته الثلجية تندفع فى رأسه جيئة وذهاباً فيقفُ لها شعرُه أشعث مستطاراً ، ثم تندفع فى صدره وتتكسر عليه فيئن ويتأوه من وقع صدماتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص يقلّب ألحاظاً عصبية خاطفة من ناحية لأخرى ، ثم قام متحاملا فى اتئادٍ وبطء ، وجاهد أشد الجهد وأنكاه ليرفع قامته ويرد إلى

بدنه المرتجف مشيةَ الكبرياء المعهودة . وقد أفلح بعد لأيٍ ، وأخذ ينفض التراب عن ركبتيه متمهلا متروياً ، ولبس القبعة ، ورسم إشارة الصليب ثلاثاً على القبر ، ثم دلف بخطوات متزنة ثابتة . على أنه مع ذلك لم يكن ليتبين وجهَ الطريق . لقد تنكّرت عليه معالمُ المدفن وهو العليم بها واختلطت عليه ، فضلّ السبيل .

وعند مفترق المسالك وقف جامداً فى مكانه يضحك :

« ضللتُ السبيل ! »

وطالت وقفته برهة ، ثم عرّج من غير تفكير إلى يساره . ذلك أنه ما كان ليطيق الوقوفَ هنا جامداً ينتظر . لقد انحدر إلى اليسار ، وتبعه الصمتُ على الأثر . إن الصمت في أثره ، يخرج من اللحود المعشوشبة ، وتتنفس عنه الصلبانُ الداكنة المتجهمة ، ويتصاعد هبواتٍ دقيقةً خانقة من الأرض المتشبعة برمم الموتى . والأب إجناتى يضاعف خطاه مسرعاً . لقد سدر بصرُه وذهل عن نفسه ، فهو يطوّف فى المسالك بعينها المرة بعد الأخرى ، واثباً فوق القبور ، متعثراً بالحواجز ، متشبثاً بالأكاليل وهى من صفيحٍ شائك الأطراف مكسوٍّ فيتمزق قماشُها الرقيق الناعم فى يديه . إنه ذاهل لا يلوى إلا على شيء واحد : الخروج من هذا المكان . فهو يندفع من ناحية إلى أخرى ، فى كل صوب . وأخيراً انطلق يعدو فى سكون ، شبحاً مديد القامة ، لا تكاد تتعرفه فى بُرْنسه الخافق وراءه ، وشعرُه المتهدل مرسلٌ فى الهواء .

إن رؤية ميتٍ قائم من القبر لأخفّ هولاً من ملاقاة هذا الرجل طالعاً عليك بمنظره الأشعث راكضاً ، واثباً ، ملوّحاً بذراعيه ، تتبين وجهه ممسوخَ السحنة مجنونَها ، وتسمع حشرجة أنفاسه تتدافع فى لغط أجشّ من فمه الفاغر .

وانتهى الأب إجناتى وهو فى أقصى سرعته إلى الرحبة الصغيرة التى تقوم كنيسة المدفن فى طرفها متطامنةً مجصّصة . وكان على المقعد الطويل عند مدخلها شيخٌ مهوّم يلوح كالحاج من بعيد ، وإلى مقربة منه امرأتان من العجائز المتسولات فى عراكٍ وشجار تتلاحيان وتتباهلان .

ولما أن بلغ الأب إجناتى منزله ، كان الليل قد دجا والمصباح قد أسرج فى غرفة أولجا استيبانفنا . فأقبل عليهـا دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته الممزقة المتربة ، وترامى على أقدام زوجته راكعاً وهتف منتحباً :

«أيتها الأم — أولجا — رحماك ، رقّى لحالى ، أكاد أفقد صوابى »

وضرب حافة المـائدة برأسه وارتفع له عويلٌ صاخبٌ وجيعٌ ، شأن الكظيم ينتحب لأول مرة . ثم رفع رأسه وهو على يقينٍ جازم من وشك وقوع معجزة بعد ذلك ، فتتكلم زوجته وترقّ لحاله :

« يا زوجتى العزيزة »

وأقبل عليها بكل جسمه الضخم ضارعاً إليها مستعطفاً إياها . فالتقى

بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين . ولم يكن فيهما رحمة ولا نقمة . أوَ قد صفحت عنه زوجته ورقت لحاله ؟ ولكن عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة . إنهما على حالهما ، خرساوان صامتتان .

* * *

والبيت كله موحشٌ ، صامت .



العضّاض

أو

حيـــاة كلب

« للروائى الروسى ليونيد أندرييف »

— ١ —

ليس له صاحب ينتمى إليه ، ولا اسم يتسمى به . ولا يدرى أحدٌ فى القرية أين يقضى الشتاء الطويل المتساقط الصقيع ، ولا كيف يجد قوته .

وكانت كلاب المنازل تطرده من أكواخها الدفئة . وهى و إن تكن مثله جائعةً إلا أنها معتزّة شديدة البأس عليه لشعورها بالانتساب إلى بيتٍ من البيوت . و إذا هو طَلَع إلى قارعة الطريق العام بدافع من سعار الجوع أو حاجة الطبع إلى المعاشرة ، رجمه الصبيانُ بالحجارة وناوشوه بالعصىّ ، واعترضه الفتيان بالزياط وَالتهليل أو بالصفير الحاد يصكّ الآذان ، فينصلتُ يمرقُ من ناحية إلى أخرى ، مضطرب الحواس من وَهْلةٍ وذعر ، متعثراً بالأسوار وأرجل السابلة ، ويعدو مسرعاً حتى آخر الطريق ، فيختبىء فى موضعٍ لا يعرفه سواه . وهنا يلعق أعضاءه المرضوضة وجراحَه ، ويحشد فى وحدته الهولَ والضغينة فى نفسه .

لم يحدث قط أن أحداً رثى له ومسح عليه ، غير مرة واحدة . وكان الماسح المشفق فلاحاً مدمناً عائداً من الحانة . وهو وقتئذ جائش العاطفة كعادة السكارى يحب كل الأشياء ، ويشفق على كل الأحياء ، ويغمغم كلاماً عن أهل الخير ومبلغ إيمانه بأهل الخير . ولقد أخذته الشفقة حتى على هذا الكلب المستقبَح القذر الذى اتفق أن وقعتْ عليه عينهُ السكرى التى تعشو إلى غير وجهةٍ وتتطلع من غير قصد ، وناداه « يا كليب » — وهو اسم يصح إطلاقه على عامة الكلاب — « يا كليْب ، تعال لا تخف »

وكان كليْب شديدَ الرغبة فى أن يُقبل عليه فجعل يبصبص بذنبه ، ولكنه كان حائراً فى أمره لا يستطيع إمضاءَ نيةٍ والإجماع على عزم . وربّتَ الفلاحُ بيده على ركبته وردد يطمئنه :

« هلمّ ، وبعدُ يا أبله . والله لست بمؤذيك »

وبينما الكلب المتردد يرعص ذنبَه إرعاصاً أنشط حركةً ومراحاً ويقترب بخطوات متسحّبة قصيرة ، إذا السكران قد تغيّر خاطره وتبدل مزاجه . لقد ذكر الساعةَ كلّ الشتم والهوان الذى ناله « من أهل الخير » ، فهاج هائجه وثارت به ضغينة بليدة . فلما أن استلقى كليبٌ عند قدميه متحبباً متمرغاً رفَسه فى جنبه بمقدّم حذائه رفسة المغلول وصاح به :

« إليك عنى ، ياقذر . فيم أنت آت ! »

وراح الكلب يئن دهشةً وخزياً أكثر منه ألماً للضرب . ومضى السكران يترنح إلى داره فأشبع زوجته ضرباً مبرحا ومزق منديلا للعنق

جديداً كان اشتراه لها هدية فى الأسبوع الغابر .

من ذلك الحين لم يعد يطمئن الكلبُ إلى نية الراغبين فى ملاطفته والمسح عليه . فهو إما واضعٌ ذيله بين ساقيه ومنفلتٌ ينجو بنفسه ، أو هو متهيج في بعض الأحيان حَرِدٌ يتهجّم عليهم محاولا عقرهم حتى يفلحوا فى طرده رمياً بالحجارة وتلويحاً بالعصى .

ولقد انتبذ لنفسه مسكناً فى هذا الشتاء تحت شرفة واسعة من دار غير مسكونة لاحارس عليها يتعهدها ، فتولى هو حراستَها بغير أجر . وكان إذا جنّ الليل هام فى الطرقات يركض وينبح حتى يبحّ صوتُه ، ثم لا يزال بعد أن يأوى إلى مثواه ويجثم فى عقره يزمجر ويزمجر برهةً غير قصيرة زمجرةَ المحنق الغاضب ، إلا أن وراء غضبه هذا يبين شىء من الرضى عن النفس بل الاعتزاز بالنفس .

ودلفتْ ليالى الشتاء بطيئةً . والدار خاوية ، ونوافذها المظلمة شاخصةٌ فى عبوس إلى الحديقة الهامدة المسجّاة بالثلوج . وفى هذه النوافذ كانت تشبّ أحيانا أنوارٌ زرقاء ، وأحيانا أخرى كان ينعكس على ألواحها شهابٌ ساقط ، أو يلقى عليها هلال السماء الأعجف شعاعَه المتسلل المتعثر .

— ٢ —

وأقبل الربيع ، وأصبحت الدار الخالية الصامتة متجاوبة الأصداء بالكلام الصاخب وقعقعة العجلات ودبدبة أناسٍ ينقلون أشياء ثقيلة . لقد قدم أصحابُ الدار من المدينة ، وهم رهط بأجمعه من المحبورين المفاريح من

شتى الأعمار : مكتملين ومحتلمين وصبية . وكلهم ثَمِلٌ بالهواء والدفء والنور . فالبعض هاتفٌ متصايح والبعض رافعٌ عقيرته بالغناء والبعض مستضحكٌ بالنغمة النسوية الرخيمة .

وتعرّف الكلب أوّلَ ما تعرّف إلى غادة مليحة انحدرت إلى الحديقة فى ثوب قرنفليّ من ثياب الطالبات منسجم الهندام ، وهى تائقةٌ فى لهف وشغف إلى ضمّ كل ما تراه واحتضانه . وكانت ترمق بمجامعِ نظرها السماء الصافية وأفنان الكرز المشربة بالاحمرار . وسرعان ما استلقت على الحشائش ووجهُها إلى الشمس المتقدة . ثم عادت فنهضت بغتةً مثلما رقدت واهتزت ارتياحا وطربا ، وقبّلت بشفتيها النديتّين نسيم الربيع ، وقالت ، وهى جادةٌ تعنى كل حرف مما تقول :

« يا لله ! إنه لشىء بهيج »

قالت ذلك ثم أدارت ظهرها فجأة . وفى هذه اللحظة كان الكلب قد اقترب منها من غير أن يحدث حساً ، وأنشب للحال أنيابه فى ذيل ثوبها المرسل مهتاجاً فمزقه ، ثم غاب من غير حِسٍّ كذلك فى أدغال الأعناب الكثيفة المتهدلة .

فصرخت الفتاة : « آه ، بئس الكلب ! » وولّت من الحديقة وظل صوتها المضطرب فترةً طويلة يُسمع وهى تردد : « يا أماه ! يا أولاد لا تذهبوا إلى الحديقة : إن فيها كلباً ، وأى كلب ! هائل من الكلاب مفترس ! » .

ولما أن دجا الليل تسلّل الكلبُ إلى الدار وقد نام أهلوها . وأوى دون أن يسمع له أحد ركزاً إلى مرقده تحت الشرفة الواسعة ، وباتت الدار — بعد أن كانت مهجورة صفصفا — يتروح منها المستروحُ وجودَ الناس ، ويسرى مع النسيم من نوافذها المفتوحة ترديدُ أنفاسهم فى الرقاد هادئةً رقيقة . هؤلاء هم القوم نيامٌ لا حول لهم ولا قدرة ، وقد خرجوا عما كان لهم من بطشٍ وسطوة ، وهذا الكلب هنالك ... وقد أقام عليهم من نفسه بالليل حارسًا شديد الغيرة ، فكان ينام وإحدى عينيه صاحية ، وكلما اختلج فى الشجر حفيفٌ أطلّ برأسه وعيناه شاخصتان لا تطرفان وفيهما بريقٌ فسفوريّ . وكانت الأصداء المثيرة للمخاوف كثيرة فى هذه الليلة الجياشة الحسّاسة من ليالى الربيع . فهنا خَشْخَشَ فى الحشائش شىء صغير غير منظور ، وهَفا على مقربة من أنف الكلب اللامع . وهناك تقصفتْ بعض الأفنان الجافة من العام الغابر تحت أقدام الطيور المهوّمة ، وفى الطريق المجاور تَدَرْج عربةٌ ثم تصرصر عجلات نقلٍ مثقلة موقرة . ولقد تضوّع من كل فجٍ فى الهواء الساجى شذا صمغ الصنوبر أرِجا منعشاً يستهوى السارى إلى الإيغال فى جنح هذا الليل الأضحيان .

وكان أصحاب الدار القادمون من أهل المعروف والخير ، فكيف بهم الآن وهم عن المدن بعيدون ، ينشقون نقى الهواء ، وحيثما ولّوا بصرَهم يبصرون خضرةً ناضرة وزرقة صافية وأمانا شاملا . يدبّ فيهم شعاع الشمس دفئاً وحرارةً ، ثم يصدر عنهم مَرَحاً وأريحية وعطفاً على كل شىء

حيّ . ولقد أرادوا فى بادىء الأمر طرد الكلب خشيةَ أذاه ، بل أطلقوا النار عليه من مسدس حين عيل صبرهم وضاق ذرعهم به وهو مصرٌّ على البقاء بأبى النزوح . غير أنهم بعد ذلك ألفوا نباحه فى الليل ، بل انقلبوا يذكرونه فى الصباح أحياناً متسائلين : « ولكن ، أين صاحبنا العضاض؟ »

ولصق به هذا اللقبُ الجديد وصارت تقع أبصارُهم فى بعض الأحيان حتى بالنهار بين الشجيرات المتواشجة على خياله المتوارى ، ولكنه سرعان ما كان ينبطح على الأرض إذا ما بدت حركةٌ من يد أحدهم يرمى إليه بكسرة من الخبز — كأنها حجرٌ يُرمى به لا خبز . ولم يعتّم القومُ أن ألفوا العضاض كبيرهم وصغيرهم ، وصاروا يلقبونه « كلبنا » ويتفكهون بالنوادر يرتجلونها عن سبب إجفاله وخوفه من غير ما موجب . على أن العضاض أخذ يقتضب كل يوم خطوةً بعد خطوة من الشقّة التى تُباعد بينه و بينهم ، وقد أنس إلى مطالع وجوههم واصطنع عاداتهم . فكان إذا أزفت ساعة الغداء شوهد واقفاً بين الشجيرات يطرف بجفنيه وعليه سيماء المسالمة والسماح . وكانت الفتاة التلميذة هى نفسها التى سكّنت من روع الكلب وطامنت من نفوره متناسيةً سابق عدوانه ، وهى التى أدخلته آخر الأمر فى هذا الوسط السعيد بين قومها الوادعين الطرو بين .

فكانت تناديه : « تعال هنا ، يا عضاض ، أيها الكلب الطيب ، تعال . أتحب السكّر ؟ إنى معطيتك قطعة . هلم إذن »

وكان العضاض محجماً عن التقدم . هو خائف يتوجس . فتربّتُ الفتاة

على ركبتها ، وتدنو من الكلب وهى تناغيه بكل ما فى الصوت الحلو والوجه المليح من حنانٍ ولطف . على أنها هى أيضا كانت خائفة . ولقد همّ الكلب بالعض فجأةً ، ولكنها لم تكن تكفّ عن مناداته وتأنيسه :

« إنى بك جدّ مشغوفة يا عضاض ، يا عزيزى . ما أبدع أنفك الصغير ، وما أبلغ معنى عينيك . ألا تطمئن إلىّ ، يا جنس العضاضين ؟ »

ورفعت « ليليا » حاجبيها . وكان أنفها الدقيق غايةً فى الحسن وعيناها غايةً فى حلاوة المعنى ، حتى لقد أنصفت الشمسُ إذ أكبّت على وجهها الصغير الغض الغرير المحاسن تغشاه بالقُبَل الحرار حتى توهجت وجنتاها .

واستلقى العضاض على ظهره للمرة الثانية فى حياته وأطبق جفنيه وهو لا يدرى على وجه التحقيق إن كان نصيبه ركلةً زاجرة أو مسحةً عاطفة ملاطفة . ولكن المسح كان فى هذه المرة نصيبه . فإن كفّين رخصتين صغيرتين لمستا فى حذر وترددٍ هامته الكثيفة الوبر . وكأنما كان هذا إيذاناً بما أصبح لها عليه من سلطان غير منكور ، فهى قد مضت تجرى راحتيها فى طلاقةٍ واجتراء على سائر جسمه الأشعر دعكا ومسحاً وتجميشاً

وصاحت ليليا : « يا أماه ، يا أولاد ، تعالوا انظروا ، هأنذى أمسح بيدى على العضاض »

وأقبل الأولاد راكضين ، متصايحين ، عاليةً أصواتُهم ، وهم فى توفزهم ولألائهم كأنهم قطرات الزئبق الرجراج . فقبع العضاضُ مكانه فى خشيةِ المذعور وانتظار المستسلم ، علماً منه بأنه لو ضربه أحدهم الآن لما استطاع

وهو على هذه الحال أن يُنشب فى لحم المسىء أنيابه المطرورة . لقد استلّت الفتاة غله المشبوب الدفين . ولما أن جعلوا أجمعين يتسابقون إلى مداعبته وملاطفته ، لبث زمناً لا يتمالك نفسه من الانتفاض لكل لمسة من أكفّ ملاطفيه ، ويجد لهذا التجميش الذى لم يسبق له به عهدٌ مساً موجعاً كأنه وقع الضرب

— ٣ —

وانبسطت من « العضاض » نفسُه الكلبية كلها . فقد أصبح له الآن اسمٌ يُقبل عند سماعه مندفعاً من أقصى خمائل الحديقة . وهو الآن ينتمى إلى ناسٍ ويقوم على خدمتهم . وماذا يحتاجه الكلبُ أكثر من هذا ليكون سعيداً !

وكان قد تعوّد القصد والقناعة بما أخذته به سنواتُ الجوع والتشرد ، فهو بعد قليل الأكل . ولكن هذا القليل أبدله حتى لتتعذر معرفتُه على عارفيه . فهذا رداء فروته سابغٌ طويل وقد كان من قبلُ خصلاتٍ كزَّة متهدلة كشعر الثعلب على ظهره وفوق بطنه ، وكانت على الدوام يعلوها الطين فأصبحت اليوم نظيفة ملساء كالقطيفة . ثم هو اليوم إذا هرول إلى الباب الكبير — ولم يكن له ما يفعل خيرٌ من هذا — فوقف هناك بالوصيد متطلعاً يُصعد نظره إلى الطريق ويصوّبه وعليه سيماء الوقار ، لم يقم بخاطر أحدٍ أن يعاكسه أو يحصبه بحجر .

ولكن هذا الاعتزاز وهذه الدعة كان لا يتملّى بهما إلا فيما بينه وبين

نفسه . وذلك أن خوفَه لمـّا يتبخرْ كله من حرارة الملاطفة . فكلما طلع أُناسٌ أو دنوا منه اختفى متوقعاً منهم الضرب والأذى . وما برحت بعد طول المدة تقع عنده كلُّ ملاطفةٍ موقع المفاجئة والعجب بحيث لا يستطيع فهمها ولا مجاوبتها . إنه لا يدرى كيف يتلقى الملاطفة . إن غيره من الكلاب ليقف على رجليه الخلفيتين ويتمشى قائماً ، بل ويبتسم مترجماً بذلك عن مشاعره ، أما هو فلا يدرى إلى ذلك سبيلا .

والشىء الوحيد الذى يستطيعه « العضاض » هو أن يتقلب على ظهره ويطبق جفنيه ويُسمع له هريرٌ رفيق . غير أن هذا لم يكن كافياً . إنه لا يفى بالاعراب عن ابتهاجه وشكره ومحبته . فاذا به يصنع شيئاً كأنه إلهام أُلقى إليه وفُتح به عليه ، ولعله رأى بعض الكلاب تصنعه ثم نسيه منذ ذلك الحين . فكان يثب منقلباً فى الهواء المرة بعد الأخرى فى سخافةٍ ولخمة ، أو هو يدور وراء ذيله . ولم يكن جسمه كالعهد به على الدوام ناشط الحركة ليّن الأعطاف ، فلقد أصبح أخشب متيبّس الأوصال وصار لعبه مثاراً للضحك ومدعاة للزراية .

فلا غرو تهتف ليليا وهى تشهق بالضحك :

« يا أماه ! يا أولاد ! انظروا ، العضاض يلعب لعب المسارح . هيه يا عضاض ! أعدْ مرةً أخرى . ومرة أخرى . هو ذاك »

فيجتمعون حوله يضحكون . والعضاض دائبٌ على دورانه وراء ذيله، وعلى انقلابه فى الهواء ووقوعه . والكل لاهون لا يلتفتون إلى ما فى عينيه

من توسّلٍ غريب . لقد كانوا قبلُ يصيحون به و يزعقونه لينظروا فَرَقه وخوفه اليائس ، وهم اليوم يلاطفونه متعمدين ليثيروا فيه فورةَ الحب المضحكة فى مظاهرها السخية الخرقاء . وما كانت تمضى ساعة إلا ويهتف أحد الفتيان :

« والآن ياعز يزى العضاض ، العب لعب المسارح »

فيتلوّى العضاض حول نفسه و يثب منقلباً فى الهواء و يقع بين الطرب والضحك الذى لا يغالَب . وكانوا يمتدحونه فى وجهه ومن وراء ظهره ولا يأسفون إلا على شىء واحد ، وهو أنه لا يعرض أَلاعيبَه على الغرباء القادمين لزيارة أهل المنزل ، بل ينفلت لفوره إلى الحديقة ويختبىء تحت الشرفة .

ولم يلبث العضاض أن تعوّد شيئاً فشيئاً أن يعفى نفسه من تكلّف الطلب لطعامه ، إذ كان الطباخ يوافيه فى الوقت المقرّر بالفضلات والعظام وهو راقد فى دعةٍ وطمأنينة فى مكانه تحت الشرفة . بل كان القوم هم الذين يَنشدونه و يسعون إليه لكى يلاطفوه . ولقد اكتنز لحمه وثقل ، فلم يكن يبرح الدار إلا فى القليل النادر . وكان إذا دعته الصِبية للذهاب معهم إلى الغابة يرعص بذيله مراوغاً و يغيب عن العيان . فأما نباحه فى الليل فقد ظل كعهده يقِظا جهيراً .

— ٤ —

وأخذ الخريف يُشيع فى الشجر ألوانَه المشبوبة بالصفرة ، وطفقت السماء تبكى بوابلٍ منهمر . فاذا المرابع تقفر من الناس وتهمد حركتها كأنها

الشموع ألحّ عليها القَطْرُ الماطل والريح الهوجاء فأخمداها الواحدة بعد الأخرى

وتساءلت ليليا حائرة : « ماذا نحن صانعون بالعضاض » . وكانت جالسة وذراعاها معقودتان حول ركبتيها تتطلع إلى خارج النافذة حزينة والمطر يسحّ ملتمعَ القطْر .

فقالت أمها : « أيّة جلسةٍ تجلسينها يا ليليا ! ما هكذا يكون الجلوس » ثم أردفت : « لا مندوحة من ترك العضاض . مسكين ! »

فقالت ليليا فى بطء وأناة : « شىء . . . يؤسف له » وراجعتها الأم : « ولكن ما العمل ؟ لا فناء فى دارنا بالمدينة . و بقاؤه فى داخلها غيرممكن. هذا الأمر يجب أن تفهميه جيداً »

فرددت ليليا وهى تكاد تجهش بالبكاء : «إنه . . . شىء . . . يؤسف له . واخسارتاه ! » ثم ارتفع حاجباها الفاحمان كأنهما جناحا غُداف ، وتقلّص أنفها الصغير اللطيف بهيئة أسيفة ، حين قالت أمها مواسية :

« لقد عرض علىّ الكلاّبون جرْوًا منذ حين ، وهم يقولون إنه أصيل دَجونٌ للبيوت . . أفهمتِ ؟ أما هذا فكلب أفنيةٍ وأحواش »

فردد ليليا : « واخسارتاه » ولكنها ظلت حابسةً دمعها .

ووفدَتْ على البيت مرةً أخرى وجوهٌ غريبة ، وصرصرت عربات النقل ، وأنّت أرضُ الغرف الخشبية تحت وقع أقدام ثقيلة — ولكن الكلام كان قليلا هذه المرة ، ولا ضحك البتة . وأجفل العضاض من هؤلاء

الأغراب ، وتوجس فى نفسه شراً وتولّى إلى أقصى الحديقة ، وجعـل يمد بصرَه من هناك خلال الأفنان المتصوّحة الناحلة ، إلى هذا الركن من الشرفة المنكشف لناظره يرمق الأشخاصَ ذوى القمصان الحمراء يذهبون ويجيئون فوقها .

وإذا بليليا تهتف وقد خرجت من الدار : « أنت هنا ، يا عضاضى المسكين ! » وكانت متجهزة للرحيل مرتدية سترة سوداء على ثوبها القرنفلى الذى سبق للعضاض أن مزق من ذيله مِزقة .

« تعال ! »

وخرج الاثنـان إلى الطريق . وظل المطر متقطعاً يهمى ويحتبس . والفضاء مابين السماء والأرض المستوحلة متلبدٌ بالسحب السارية المتدافعة . وإن المتطلع إليها لايخطىء غلظَها وتراكبها ، فهى لكثرة امتلائها بالماء مطبقةٌ لا يُرى فيها خللٌ ولا فتْق يذرّ منه قرن الشمس ، بل الشمس منها وراء سدٍّ منيع .

وكانت تنبسط إلى يسار الطريق حقولٌ داكنة لا زرع فيها إلا بقايا الحصاد وأعقاب العيدان ، ولا يقف النظرَ إلا أشجارٌ وشجيرات قصار غير متساوية فى بقاع متفرقة عند الأفق القريب المترائى بربواته المتطامنة وكثبانه المتعرجة . وإلى الأمام على مسافة غير بعيدة يقع حدُّ القرية ويقوم بابها ، وثمة إلى جانبه حانوت خمّار سقفهُ الأحمر من حديد ، وعنده رهط من الناس يعاكسون « يوشع » مخبول القرية .

ويقول المخبول بصوت أخنّ وهو يمطّ كلامه : « أعطونا درهما » فتجاوبه أصواتٌ شاغبة هازئة فى نفس واحد :

« هلا احتطبت لنا خشباً ؟ »

فيقذفهم يوشع بالسباب مقذعاً مستهتراً فترتفع من هؤلاء قهقهة فيها صخبٌ بغير سرور

ونفذ من الغيم المطبق شعاعٌ من الشمس أصفر سقيمٌ حتى كأن الشمس أدنفها داء عياء لا يرجى منه شفاء ، واتسعت مع الضوء رقعة النظر فى هذه المشاهد من الخريف المدجن ، وزادت مجاليه وحشةً على وحشة

وجرت على شفتىْ ليليا كالعذب السلسال هذه الكلمات : « إنى آسفة يا عضاض ! » ثم مضت لاحقةً بذويها لا تلوى على شىء ، ولم تذكر إلا وهى تستقل القطار أنها لم تودّع العضاض

وأما العضاض فما زال يجرى فى إثر الظاعنين حتى المحطة ، ثم قفل راجعاً إلى البيت الخلوى مبتلاً موحلا ، وهنا قام بلعبة أخرى جديدة ، ولكنها مالها من شاهد ، فهذا هو للمرة الأولى يمشى إلى الشرفة ، ويقف على رجليه الخلفيتين ، ويتطلع إلى داخلها من الباب الزجاجى ، بل يخمشه بأظافره طلباً لفتحه . ولكن الغرف كلها خاوية ولا من مجيب

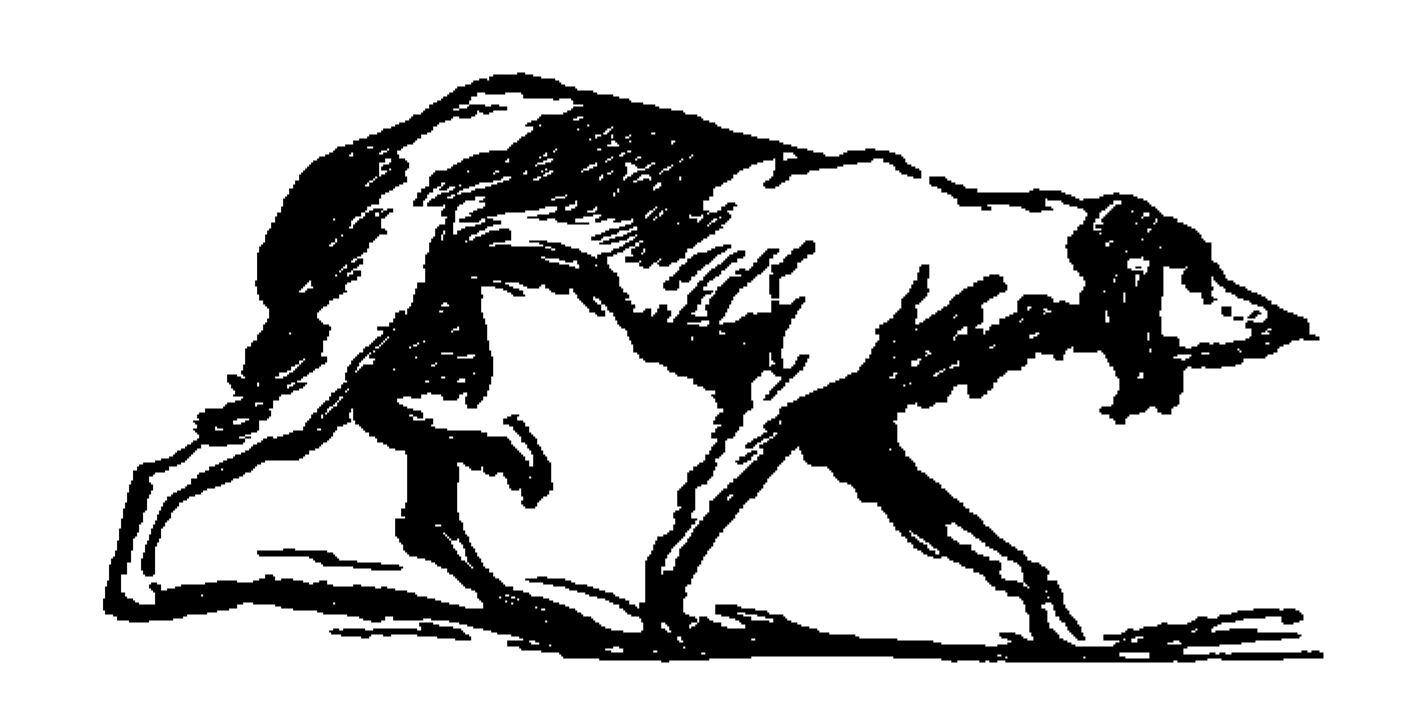
وانهمر المطر كأفواه القِرَب ، وأخذ ليلُ الخريف الطويل يقبل من جميع الأرجاء مخيّماً مُرخياً سدوله ، فامتلأ البيتُ الخلوى المقفر بعَتمته المعجلة الثقيلة الظلّ . وكان الظلام كأنما ينساب من الشجيرات ويفيض مع المطر من

السماء المتجهمة . وكانت الشرفة بعد إذ نزعوا عنها الظُّلة تبدو فلاة بلقعاً من معامى الأرض ومجاهلها . ولقد كان النهار والظلمة فوقها وقتئذ مشتبكين فى صراعٍ طال برهة ، وظهرت فى غَبَشِه الكابى آثارُ الأقدام فى الوحل محزنة مشجية . ثم سرعان ما غُلب النهار على أمره وخيّم الليل .

ولما لم يبق من شك فى أن الليل قد أناخ وألقى بجِرانه ، أخذ الكلبُ ينبح و يردد النباح كمثل النواح ، وكان نباحه الجهير الحاد كاليأس يتخلل صوتَ الوبل فى انهماره الرتيب الملحّ الكئيب ، فيشق الظلامَ وتحمل الريحُ أصداءه المضمحلة إلى الحقول الجرداء المحلولكة

وظل الكلب ينبح — دائباً ، ملحّاً ، مستيئساً ، صابراً — وإنه ليخيل إلى السارى الذى يسمع فى الليل نباحه أن الليل الحالك نفسه هو الذى يئنّ و يحنّ إلى النهار ، و يود السارى لو أنه قبع فى داره بقرب زوجته يصطليان دفء الموقدة

وظل الكلب ينبح



القصر المهجور

« للروائى الفرنسى أونوريه دى بلزاك »

على مسيرة مائة خطوة من مدينة ڤندوم ، على ضفاف اللوار ، يقوم قصرٌ قديم داكن ، شاهق السماك ، مفردٌ وحده ، وقد شاهت حديقتُه ، واستوحشت شجيراته ، وكلحت جدرانه ، وتعفّرت نوافذه وأبوابه ، وخيّم عليه سكونٌ فاجع تحسّ النفس أن وراءه سراً . وقد علم كاتبُ هذه السطور من خادمة فى نُزلٍ قريب حكاية أهل هذا القصر ، وكانت وصيفة عندهم وقد حلّها نزوحُ السيد إلى غير رجعةٍ وموتُ السيدة من بعده من أمانة السر التى ظلت على التزامها سنوات طوالا .

وهذا ما حكَته بعد اختصاره، والسلوك به إلى ناحية الإيجاز واقتضاب مقدماته ، وقصره على ما تنجلى به خافية الأمر ويرتفع به جانب الستر :

كان المخدع المخصص فى القصر للكونتس دى ميريه فى الطابق الأرضى ، وكانت تَلحق به مقصورةٌ صغرى طولها أربع أقدام متدخّلة فى الحائط، تتخذها السيدة خزانةً لأثوابها . وكانت الكونتس دى ميريه فى ذلك الحين قد ألمّتْ بها من ثلاثة أشهر وعكةٌ شديدة تقضى بأن تستقل بهذه الحجرة وأن يدعها الزوجُ وحدها ، فكان يرقد فى حجرة بالطابق الأول .

ولقد شاءت مصادفة من تلك المصادفات التي لا ضابط لها في التقدير والحسبان ، أن يعود الكونت ذات ليلة متأخراً عن مألوف عادته من النادي الذي يرتاده لمطالعة الصحف والحديث في السياسة . وكانت زوجته تحسبه قد عاد في موعده وأنه في مضجعه مستغرقٌ في النوم . ولكن أخبار الحرب كانت مثار نقاشٍ شديد في النادي تلك الليلة . وكذلك كان شوط البليارد هذه المرة حامي الوطيس وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ جسيم في الريف حيث الناس أجمعون مدّخِرون للمال جامعون ، وحيث الطبائع مكفوفةٌ عن الغلواء ملتزمةٌ حدود القصد الحميد — ولعل في هذا مصدراً للسعادة الحقة لايحفل به الباريسيّون . وكان المسيو دي ميريه منذ حينٍ يَقنع بسؤال الوصيفة روزالي عما إذا كانت السيدة دي ميريه أوت إلى فراشها ، فترد الوصيفة على سؤاله بالإيجاب دائماً ، فيبادر إلى حجرته بسلامة الطوية التي تورثها العادة والثقة . ولكنه في هـذه الليلة بدا له أن يعرّج على زوجته يحدّثها بما لاقى من سوء حظ ، ولعله قام بنفسه أيضاً التماس العزاء في قربها . فلقد كانت على العشاء غَنِجَةَ الزينة متبرجة ، فحدّث نفسَه وهو عائد من النادي إلى البيت في أنها عوفيت وصحّ بدنها وكيف أنها زادت على النقاهة حسناً . ولقد فطن إلى ذلك الليلة فقط كما هو العهد بالأزواج يفطنون إلى كل شيء متأخرين . فها هو ذا لا يدعو روزالي التي كانت في تلك اللحظة مشغولة في المطبخ بمتابعة الطاهية والحوذي يلعبان بالورق شوطاً عسيراً ، بل يأخذ سمته توّاً إلى مخدع امرأته على ضوء

فانوسه الذى وضعه على الدرجة الأولى من السلم . وكانت خطوتُه — ومن السهل معرفتها — تدوّى مردّدة الصدى تحت حنايا الدهليز . فلما أن أدار مفتاح حجرة زوجته ، خُيّل إليه أنه يسمع باب المقصورة الداخلية المتخذة خزانةً للثياب يقفل . ولكنه حين دخل ألفى امرأته وحدها واقفة أمام الموقد، فوقع بنفسه فى بساطةٍ أن وصيفتها روزالى فى المقصورة . بيد أن طائفاً من الشك طنّ فى أذنه طنينَ الجرس فأيقظ توجسه . فتطلع إلى امرأته ، فرأى فى عينيها ما لا يدرك كنهه من البلبلة والاستيحاش .

وقالت : « لقد طال فى العودة تأخرُكَ » .

ولكن هذا الصوت الذى يعهده غايةً فى الصفاء ونهايةً فى الرقة بدا له متغيراً بعض التغير . ولم يُجرِ السيد دى ميريه جواباً إذ دخلت فى هذه اللحظة روزالى وكان دخولها من باب الحجرة لا المقصورة ، فوقع ذلك عليه وقع الصاعقة . وجعل يتمشى جيئة وذهابا فى الغرفة متنقلاً من نافذة إلى أخرى ، بحركة رتيبةٍ واحدة ، مكتوف الذراعين .

وسألته امرأته فى وجلٍ وخشية ، وروزالى تعاونها على خلع ثيابها :

« أوَ بلغك ما أحزنك ، أو بك ما تشكو منه ؟ »

فلم يخرج عن صمته .

والتفتت السيدة دى ميريه إلى وصيفتها قائلة : « إذهبى أنت . سأعصب شعرى بنفسى » .

لقد أوجستْ أمراً من مجرد التطلع إلى سيماء زوجها ، فأرادت ألا يشهدهما ثالث .

فلما أن ذهبت روزالى — أو على أصح القولين أوهمتْ أنها ذهبت ، إذ الواقع أنها وقفت فى الدهليز تتسمع — تقدم السيد دى ميريه فجلس قبالة زوجته ، وقال لها فى برود :

« سيدتى ، فى هذه المقصورة شخص ! »

فرمقت السيدة زوجها هادئة المظهر ، وأجابت فى بساطة :

« لا ، يا سيدى »

ولقد فجعتْهُ « لا » هذه ، وصدعتْ قلبه . فإنه لم يصدقها . ومع هذا فلم تَبْدُ له امرأتُه أخلص نقاءً وأخشع تديناً منها فى هذه اللحظة .

ونهض السيد دى ميريه يريد فتح المقصورة فأمسكت السيدة دى ميريه بيده ، ووقفتْه ، ونظرتْ إليه فى حزن وأسى ، وقالت له فى صوت شديد التأثر :

« فكّرْ فى انقطاع ما بينى و بينك إذا أنت لم تجد أحداً »

وكان لوقفتها حرمةٌ وقارٍ وطابع جلالٍ من وراء التصديق رَدًّا على الزوج عميقَ التوقير والإجلال لها . فاستقرّ على عزيمة من تلك العزائم التى لولا ضيقُ الرقعة لضمنت البقاء وخلود الذكر .

قال : « كلا ، يا جوزفين ! لست فاعلاً ، و إلا افترقنا على الحالين فراقاً لا لقاء بعده . اسمعى لى ، إنى أعرف مبلغ نقاء سريرتك ، وأعرف

أن حياتك حياةُ قديسة ، ولن يقوم بخلدك أن تقترفى كبيرةً فيها هلاكُ نفسك »

فرفعت السيدة دى ميريه إلى زوجها نظرةً تائهة .

ومضى الزوج يقول : « خذى ، هذا صليبك . فاقسمى لى أمام الله أن لا أحد هناك ، فانى إذ ذاك مصدقك وقابضٌ يدى عن فتح هذا الباب »

فتناولت السيدة دى ميريه الصليب وقالت : « أقسمت »

فقال الزوج : « ارفعى صوتك وأعيدى القسم (أقسم أمام الله أن لاأحد فى المقصورة) »

فاعادت العبارة غير متلجلجة .

فقال الزوج فى برود : « حسنا . . . »

و بعد لحظة صمتٍ قال وهو يمعن النظر فى الصليب وكان من آبنوس محلًّى بالفضة بديع النقش للغاية :

« إن عندك تحفةً بديعة الشكل لم أكن أعهدها عندك »

فأجابت : « لقد رأيتها عند ديفيقيه ، وكان اشتراها من راهب اسبانى عند ما مرتْ بالبلدة جماعةُ الأسرى الأسبان فى السنة الماضية »

فنبس السيد دى ميريه « آه ! » وأعاد الصليب إلى مناطه من المسمار.

ثم قرع الجرس . فلم تلبث روزالى أن دخلت ، وخفَّ السيد دى ميريه إليها وأخذها إلى فُرجة النافذة المطلة على الحديقة وهمس إليها :

« أنا أعلم أن جورنفلو راغبٌ فى زواجك وأنه لم يمنعكما إلا الفاقة ، وقد صارحتِه أنك لن تكونى زوجته إلا حين يصبح مقدّم بنائين . . . إذن ، هيا التمسيه ، وقولى له أن يأتى إلى هنا ومعه مِسَجّتُه وسائر أدواته ، وحاذرى أن يتنبه فى بيته أحدٌ غيره . ولسوف يجاوز كسبُه ما تشتهين . هيا ، وليكن خروجك من هنا خاصةً من غير ثرثرة ، و إلا . . . »

وقطب ما بين حاجبيه . وخرجت روزالى ، فاستدعاها إليه ثانية :

« خذى ، دونك جوازُ مرورى » .

ثم صاح السيد دى ميريه بصوت راعدٍ مجلجل فى الدهليز « جان ! »

وكان جان حوذيه وأمين سرّه وموضع ثقته معاً ، فلما سمع النداء ترك شوط الورقَ وقَدِم على عجلٍ ملبياً .

فابتدره سيده صائحاً : « هلموا للنوم جميعاً » وأومأ إليه بالدنو ثم همس إليه : « حين ينامون جميعاً ، حين ينامون ، أسامعٌ أنت ! فانزل وأعلمنى »

وكان السيد دى ميريه يُصدر أوامره دون أن تغيب عن ناظريه امرأتُه ، ثم عاد فى سكون إلى قربها أمام المصطلى ، وجعل يحدثها بما جرى فى شوط البليارد و بما دار من نقاشٍ بين المجتمعين فى النادى . فلما أن رجعت روزالى وجدت السيد والسيدة يتجاذبان الحديث كأصفى مايكون.

وكان السيد فى العهد الأخير قد أمر بالحجرات التى يتألف منها جناح الاستقبال فى الدور الأرضى فجُصِّصت سقوفُها . ولما كان الجصّ عزيز الوجود فى البلدة ونقلُه يزيد كثيراً فى نفقته فقد استورد منه السيد مقداراً

كبيراً لعلمه أنه واجد على الدوام كثيرين من المشترين لِما يتبقَّى منه . وهذه المناسبة القريبة هى التى أوحت إليه بالنية التى هو عاملٌ على إمضائها .

وهمست روزالى : « سيدى ، جورنفلو موجود » .

فأجاب السيد رافعاً صوته : « ليدخل » .

وتغير وجه السيدة دى ميريه عند رؤيتها للبناء .

وقال الزوج : « يا جورنفلو ، اذهب وخذ قرميداً من المخزون ، واحمل منه ما يكفى لسدّ باب هذه المقصورة ، وعليك بالجص المتبقى عندى لدهان الجدار بعد ذلك » .

ثم اجتذب إلى ناحيته روزالى والعامل ، وقال هامساً : « اسمع لى يا جورنفلو . بعد فراغك تنام الليلة هنا . وفى صباح الغد يكون فى يدك جواز للرحيل إلى قطر أجنبى ، إلى بلد سوف أسميه لك . وسأعطيك ستة آلاف فرنك لرحلتك . وفى ذلك البلد تقيم عشر سنوات . فإذا لم يطب لك فيه المقام ، فلك أن تستوطن غيرَه ولكن فى القطر نفسه . وليكن مَجازك عن طريق باريس حيث تنتظرنى ، وثمة أوقع لك صكاً بستة آلاف فرنك أخرى تكون حقاً لك بعد عودتك فى حال وفائك بشروط الصفقة التى بيننا . وفى لقاء هذا تَطوِى فى غور سرِّك ما أنت فاعله الليلة هنا وتُشرج عليه صدرَك . أما أنتِ يا روزالى ، فسأهبك عشرة آلاف فرنك لا أنقدها إياكِ إلا يوم عرسك ، وعلى أن تتزوجى جورنفلو . ولكن ، أمر زواجكما رهنٌ بالصمت والتزام الكتمان . وإلا ، فلا صداق »

ونادت السيدة دى ميريه : « روزالى ! تعالى مشّطى شعرى »

وجعل الزوج يذرع الحجرة فى هدوء طولا وعرضاً ، وهو يرقب الباب والبنّاء وامرأته ، دون أن تبدو منه ريبة جارحة . وكان جورنفلو يُحدِث ولا محالة بعضَ الجلبة . فانتهزت السيدة دى ميريه أن كان البنّاء يُفرغ على الأرض ما يحمل من حجارة وزوجها فى آخر الحجرة ، وهمست إلى روزالى : « ألف فرنك أجريها عليك كل عام ، يا بنيتى العزيزة ، لو استطعتِ أن تقولى لجورنفلو أن يترك فى أسفل البناء ثغرة »

ثم قالت لها بصوت مسموع وهى رابطة الجأش :

« هيا إذن فعاونيه »

ولبث السيد والسيدة دى ميريه صامتين طوال المدة التى قضاها جورنفلو فى سدّ الباب . وكان صمت الزوج عن قصدٍ وتدبير حتى لا يتاح لامرأته التعريضُ بالكلام ، وكان صمت امرأته عن تحفظٍ أو إباء . ولما أن بلغ الجدار نصف ارتفاعه انتهز البنّاء الماكرأن كان الزوج مستديراً ، فأصاب إحدى زجاجتىْ الباب بضربة من معوله ، فأدركت السيدة دى ميريه من ذلك أن روزالى أدّت للبنّاء رسالتها . ولمح ثلاثتهم من وراء الشظية المحطمة وجهَ رجل أسمر الإهاب ، أسود الشعر ، برّاق النظرة مشتعلها . وقبل أن يستدير الزوجُ كانت المرأة المسكينة قد أومأت برأسها إلى الغريب : « أن انتظرْ وأمِّلْ »

وفى الساعة الرابعة عند انبلاج الصبح — وقد كان ذلك فى شهر

أيلول — تم البناء . ولم يبرح البنّاء القصر، و بقى تحت ملاحظة جان الحوذى الأمين . ورقد السيد دى ميريه فى حجرة زوجته . وفى صبيحة الغد هبّ من فراشه وهو يقول بلهجة فارغِ الهم خالى البال :

— « آه ياللشيطان ! لا بد لى من الذهاب إلى دار العمدة لاستخراج جواز السفر » ووضع قبعته على رأسه وخطا خطوات ثلاثاً إلى الباب ، ثم راجع نفسه ، وأخذ الصليب معه .

فارتجفت زوجته فرحاً وقالت فى نفسها : « إنه ذاهب إلى ديڤيڤية »

وما كاد يخرج السيد حتى دقّت السيدة دى ميريه الجرس لروزالى ، ثم هتفت بها فى صوتٍ مخيف :

— « المِعول ! المعول ! و إلى العمل . لقد رأيت البارحة كيف كان جورنفلو يزاول العمل . ولدينا المتسع من الوقت لنقب فجوة ثم سدها . »

وفى مثل لمحة الطرف أحضرت روزالى إلى سيدتها أداة كالفأس ، فأقبلت هذه على الجدار تضربه بحمية لا يتصورها وهمٌ ولا تتمثل فى خيال. ولقد أطارت فعلاً بعض الحجارة . وفيما هى تتحفز لضربة أخرى أقوى بأساً وأشد تقويضاً إذا بها تبصر السيد دى ميريه خلفها . فخرّت من فورها مغشياً عليها .

وقال السيد فى برود : « ضعوا السيدة فى فراشها »

لقد توقّع الرجل ما هو حرىٌّ بالوقوع فى غيبته ، فنصب هذا الشرك لزوجته . واكتفى فى كل بساطة بأن يكتب إلى العمدة فى أمر جواز السفر وأن يرسل فى طلب الصائغ ديڤيڤيه .

وقد وافى الصائغ وكانت الحجرة قد تم إصلاح أمرها ولمَّ شعثها .

فسأله السيد : « قل لى ياديفيفيه ! أوَ لم تشترِ صلبانا من الأسبان الذين مروا بالبلد ؟ » .

« لا ياسيدى » .

فقال السيد وهو يبادل امرأته نظرة النمر : « حسناً ! أشكرك »

ثم التفت إلى خادمه الأمين وقال : « جان ! قلْ لهم من اليوم أن يقدموا الطعام لى فى حجرة السيدة . إنها مريضة ، ولن أدعها حتى تعافى »

ولبث السيد القاسى عشرين يوماً بجانب جوزفين زوجته . وكان فى الأيام الأولى كلما اضطرب حسٌّ فى المقصورة المسدودة ، وهمَّتْ جوزفين بالتوسل إليه من أجل الغريب المختنق ، لم يدعها تنبس بكلمة مما تهمّ به مردداً على سمعها قولاً واحداً .

« لقد أقسمت على الصليب أن لا أحد هنا »



أرملة

« للقصص الفرنسي جي دي موباسان »

كان ذلك فى أوان الصيد فى قصر بانفيل ، والخريف مَطيرٌ حزين ، والأوراق الذابلة المحمرّة منتثرةٌ على أرض الغابة لا يسمع لها تقصّفٌ تحت الأقدام ، بل تعطنِ فى الطرقات بمدارج العجلات تحت شآبيب الدِيَم الهاطلة

وكانت الغابة جرداء إلا قليلا ، تُشْبه من الرطوبة بيتَ الاستحمام . فإذا أوغلتَ فيها تحت أفنان الدوح العالى يصفّقه وابلُ المطر ، شملتك رائحة مخمّة ، وهبوةُ بخارٍ من العشب المخضلّ والأرض المبتلة . وكان الصيادون يدبّون — حُناة الظهور — تحت هذا الفيض الهتون . والكلاب متجهمةٌ ساهمة ، ذيلُها مرسلٌ إلى الأرض وشعرها ملتصق بآطالها . والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصّلة على أعطافهن، اللاصقة بأبدانهن وقد أشربها البلل . كان هؤلاء جميعاً يؤوبون كل مساء من الصيد أنضاءَ جسمٍ وعقلٍ معاً .

وكانوا بعد العشاء يجتمعون فى البهو الكبير إلى لعبة الورق من غير انبساط ولا لذة، وللريح فى الخارج هباتٌ مدوّيات تدفع فى مصاريع الشبابيك المغلقة ، وتبتدر دواراتِ الهواء المتقادمة العهد فوق الأبراج فإذا هى من الدوران كالخذروف المدوّم .

وأرادوا أن يسمروا بالحكايات على نحو ما يُروَى فى الكتب ، فلم يوفق أحدٌ إلى ابتداع حكاية مسلية . ومضى الصيادون يقصّون ماوقع لهم فى أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم للأرانب . وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن و يتقصّين فى ثناياها فلا يجدن خيالا كخيال شهرزاد يسعفهن بحكايةٍ من أمثال حكايات ألف ليلة وليلة .

وكاد القوم أن تنقطع بهم أسبابُ الحديث ، إلا أن إحدى الغانيات كانت تعبث خاليةَ البال بيد عمتها العجوز وهى عانسٌ لم تتزوج ، فلحظت خاتما صغيراً من شعراتٍ شقراء كثيراً ما وقع ناظرُها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه . فسألتها — وهى تديره فى أصبع صاحبته بلطفٍ — « ألا قلتِ لنا يا عمتى ما هذا الخاتم ؟ لكأنه شعر غلامٍ يافع ... »

فاحمارّ وجه العانس ثم اصفارّ ، وأجابت بصوت متهدج : « إن الأمر محزن جداً ، محزن جداً ، حتى لست أحب فيه الكلام . وكل الذى فى حياتى من شقاء فهذا مصدره . لقد كنت فى غرارة الشباب وقتئذ . أن الذكرى ما برحت تلوعنى وترمضنى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرتْ فى نفسى »

فتلهف القوم إلى سماع الخبر ، وأبت العمةُ ذلك عليهم . فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الأمر وأنشأت تقول :

(كثيراً ما سمعتمونى أتحدَّث عن أسرة سانتيز ، وقد انقرضت اليوم عن آخرها . ولقد عرفت الثلاثة الأخر من رجال هذا البيت . والثلاثة

ماتوا ميتةً واحدة ، وهذه شعرات الأخير ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجلى . لقد يبدو لكم الخبر غريباً . أليس كذلك ؟

(بلى لقد كانوا معشراً عجباً من المجانين — إن شئتم هذه التسمية — ولكنهم مجانين ظرفاء ، مجانين غرام . فهم جميعاً — أباً عن جد — ذوو عواطف عارمةٍ جامحة ، تدفعهم فى صميم كيانهم كله دواعٍ لاتُدافَع إلى أبعد السبحات ، إلى التفانى المهوّس والغلواء فى التحمس ، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم . وهذا الهيام منهم بمنزلة التديّن الشديد فى بعض النفوس . وشتان فى الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة و بين أزيار النساء . وقد شاع بين ظهرانيهم هذا الوصف « عاشق عشقَ آل سانتيز » . وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم . فما منهم إلا ذو خصل منسدلةٍ على الجبين ولحية جعدة وعينين واسعتين ينفذ شعاعهما فى نفسك فيبَلْبلك و يشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سبباً .

(وكان جدّ الغلام — الذى رأيتم فى أصبعى تذكاره الوحيد — له مغامراتٌ عدة ومبارزات وسبْيٌ واستباحةٌ للحريم . وقد هام بعدَها وهو فى الخامسة والستين بابنة مؤاجرِ ضياعه . و إنى لأذكرها . وكانت شقراء ، شاحبة اللون ، حسنة السمت والشارة ، تتكلم متئدةً وفى صوتها لينٌ وتطريب ، ونظرتها حلوةٌ غايةٌ فى الحلاوة كأنها نظرة العذراء فى صورة الرسامين . فأخذها السيد الكهل عنده . وسرعان ما أصبح متيماً بها لا يطيق البعد عنها لحظة . وكانت ابنتُه وامرأةُ ابنه المقيمتان فى القصر

لا تنكران من الأمر شيئاً لطول ما قرّ الحب فى تقاليد الأسرة . فإن الأمر إذا كان أمر العشق فليس شيء فيه عندهما بمستنكَر . و إذا جرى الحديث أمامهما عن هوى مخيَّب مردود ، أو عاشقين افترقا ، أو حوادث الانتقام من الخيانة أو نقضِ العهد ، قالتا معاً فى لهجة أسيفة شجية : « له الله — أولها الله — ! لشَدّ ا قد تألّمَ ولا ريب ، حتى بلغ الأمرُ به هذا المبلغ » ولا تزيدان على ذلك . فهما لا تبرحان تدركهما الرحمة لمآسى الحب ، ولا تنقمان قط على أصحابه — ولو أجرموا .

(إلا أنه فى ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شابٌّ فى عنفوان الشباب ، هو المسيو دى جراديل . فاختطف الفتاة . وظل المسيو سانتيز هادئاً كأن لم يحدث شيء . و إذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقاً بمرقد الكلاب والكلابُ حوله . لقد شنق نفسه . كذلك مات ابنه مثلَ هذه الميتة فى فندق بباريس فى أثناء رحلته سنة ١٨٤١ على أثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له . وترك بعده ولداً فى الثانية عشرة وأرملة هى أخت أمى . وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا فى بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعاً .

(ولا يسعكم أن تتصوّروا كيف كان هذا الصغير سانتيز مدهشاً فى نضجه الباكر قبل الأوان . و إنه ليخيل إلى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقةِ عاطفــةٍ وسبحاتِ نفس جائشةٍ قد اجتمعتْ فيه ، فى هذا

العَقِب الأخير . وكان على الدوام سارحَ الفكر حالماً ، يتمشى وحده ساعات كاملةً فى ممشى رحيبٍ بين أشجار الدردار يمتدّ من القصر إلى الغابة . وكنت أرقب من نافذتى هذا الصبي الرقيق الوجدان ، وهو يسير وئيدَ الخطى ويداه خلف ظهره مطرقاً إلى الأرض . وأحياناً يتوقف ويرفع طرفَه كأنه يرى ويدرك ويحسّ أشياءَ ليست لمن كان فى سنّه .

وكثيراً ما كان يدعونى للخروج بعد العشاء فى الليالى المقمرة قائلاً « هلمى يا ابنة الخالة نحلم ... » فنمضى سويًّا إلى الروض . وكان يتوقف فجأةً فى الفضوات بين تفاريج الشجر ، حيث تطفو تلك الهبوةُ البيضاء — مثل نديف القطن — يبطّن بها القمرُ فجوات الغاب . ويقول لى وهو يشدّ على يدى « أنظرى إلى هذا ، أنظري إلى هذا . ولكنك لا تفهمينى ، إنى لأحسّ ذلك . لو أنك تفهميننى لكنا سعداء . لا بد من الحب لمن شاء المعرفة » وكنتُ أضحك وأقبّله . أقبّل هذا الصبي الذى يحبنى مستهلكاً فى حبي .

(وكان أيضاً بعد العشاء كثيراً ما يجلس على ركبتىْ أمى قائلاً لها « إيه يا خالة ، قصّى علينا شيئاً من قصص الحب » فتحكى له أمى على سبيل الدعابة أساطيرَ أهل بيته كافةً وجميعَ ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية . والناسُ يرددون من وقائعهم الألوف بعد الألوف من صحيحةٍ ومفتراة . إن هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم ، فلقد كانت هذه الأخبار المأثورة عنهم تَسُور فى رؤوسهم ويستجيشون لها فتملكهم العزّةُ أن يكذّبوا سمعةَ بيتهم وما اشتهر به .

(وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفظيعها ، وكان فى بعض الأحيان يدقّ بيديه مردداً : « وأنا أيضاً ، وإنى لأعلم بالحب منهم جميعاً »

(ثم جعل يتحبب إلىّ متغزّلاً فى استحياء وحنان عميق كانا مثاراً للضحك لشدة غرابة الأمر . وكان فى كل صباح يقطف لى جَنِىّ الزهر ، وفى كل مساء قبل صعودى إلى مقصورتى يلثم يدى هامساً « أنا أهواك » .

(لقد أذنبتُ ، وركبنى أعظمُ الذنب . وما زلت على هذا نادمةً باكية لا يرقأ لى دمع . وإنى لفى التكفير عن هذا طوال حياتى . وقد بقيتُ بعده عانساً لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترمّلة . أجلْ ، أنا أرملتُه .

(كنت ألهو بهذا الحب الصبيانى ، بل كنت أعمل على إذكائه . فكنت إلى جانبه المرأةَ الخلوب ذات الدلّ ، وكأنى إلى جنب رجلٍ ألاعبه وأخاتله . لقـد فتنتُ هذا الغلام ودلّهتُه بحبى . وكان الأمر عندى لعباً ومعابثة ، وعند أمى وأمه تسليةً وترويحاً . . لقد كانت سنّه اثنتى عشرة فتأملوا ! مَن كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرامَ الذَرّيّ ! فكنتُ أقبّله ما شاء ، بل كنت أكتب رسائل العشق له أقرؤها لأمى وأمّه قبله . وكان يجيب عليها بكتب مسطورةٍ ، كتبٍ من نار ، وقد احتفظتُ بها . وكان معتقداً أنّ صلتنا الغرامية سرٌّ مكتوم . وكيف لا ، وهو يعتدّ نفسه رجلا ، والأمر فى عرفه الجدُّ كل الجد . وقد غاب عنا أنه من آل سانتيز .

(ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قُرابةَ عام . وفى ذات مساء ونحن فى الروضة خرّ جاثياً عند قدمى ولثم حاشية ثوبى فى اندفاع المهتاج

مردداً « أنا أهواكِ ، أهواكِ ، أنا ميت فى هواكِ . وإذا خنتنى فى يوم من الأيام ، أسامعةٌ أنتِ — إذا هجرتنى إلى سواى فانى صانعٌ مثلما صنع أبى . . . » وأردف فى صوتٍ عميق يقشعرُّ له البدن « أنت عليمةٌ بما صنع »

ولما وجمتُ ولم أحِرْ جواباً نهض وشَبَّ على أطراف قدميه ليَبْلُغ إلى أُذُنى — وكنت أفرعَ منه طولاً — ودعانى باسمى ، اسمى الأول « جنفييف » بنغمةٍ حلوة جميلة رقيقة شملتنى منها قشعريرةٌ سَرَتْ من فرعى إلى أخمص قدمى .

(فغمغمتُ « لنرجع ، لنرجع إلى الدار » . فلم ينبس بكلمةٍ وسار فى إثرى ، فلما هممنا بصعود درجِ السلم استوقفنى « أتعرفين ، إذا هجرتنى فانى قاتلٌ نفسى »

(فعلمتُ هذه المرة أننى تماديتُ حيث لا يجب التمادى ، وجعلت أتكلف معه التحفظ . ولما أن كتب ذات يومٍ يعتب علىّ ، أجبته : « أنت اليومَ أكبرُ من عبثِ المزاح وأصغرُ من جدّ الحب . وإنى فى الانتظار »

(وحسبتُنى بهذا قد أبرأتُ ذمتى .

(وفى الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية . فلما عاد فى الصيف التالى كنت مخطوبة . فأدرك الأمرَ فى الحال ، والتزم مدى ثمانية أيامٍ هيئةَ المفكر الغارق فى التفكير . فأهمّنى ذلك وساورنى منه قلقٌ شديد .

(وفى صبيحة اليوم التاسع ، استيقظتُ من نومى فوقعتْ عيناى على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب . فتناولتُها ، وفتحتها فقرأت فيها « لقد هجرتنى ، وأنتِ تعلمين ما قلتُه لك . لقد قضيتِ فىَّ بالموت . وإنى لأحبّ أن لا يعثر بى أحدٌ غيرك ، فتعالى إلى الروض فى الموضع الذى قلتُ لك فيه إنى أهواك وتطلّى فى الفضاء »

(فكدتُ أن أجن . وأسرعت بارتداء ثيابى وهرولت أجرى على عجلٍ ، وأجرى ، وأكاد أتساقط إعياء ، إلى المكان المعين . وإذا قبّعتُه الصغيرة المدرسية ملقاةٌ على الأرض فى الوحل ، فقد كانت الليلةُ مطيرةً . ورفعتُ طرفى ، فأبصرت شيئاً معلقاً يترجّح بين الورق . وكان يوم ريحٍ ، ريحٍ شديدة

(ولا أدرى بعد ذلك ما صنعتُ . لقد صرختُ أول الأمر ولا ريب ، ولعلنى سقطت بعدها مغشياً علىّ ، ثم عدوت هائمةً على وجهى إلى القصر . وثُبْتُ إلى الرشد فى فراشى وأمى إلى جانبى

(فخيل إلىّ أنى رأيتُ مارأيتُ كلَّه فى هذيانِ حلمٍ فظيعٍ . فغمغمتُ « وهو ، أين هو ، جونتران ؟ » فلم يجبنى أحدٌ . إنها الحقيقة ...

(ولم أجرؤ على طلب رؤيته . وطلبتُ إليهم خصلةً طويلة من شعره الأشقر . وهذى ... هذى ... هى ...)

ومدّت العانسُ يدها الراجفة بحركة القانط المقطوع الرجاء .

ثم أخرجت منديلها ، ومخطت مراتٍ ، ومسحت عينيها الدامعتين ،

واستأنفت تقول : « ونقضتُ الخطبة دون إبداء السبب ... و بقيتُ ... بقيتُ طوال العمر . . . أرملة . . . أرملة هذا الصبي ابن الثلاثة عشر ربيعاً » . ثم مال رأسُها على صدرها و بكت طو يلا بدموع الذكرى .

ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد ، مال صيادٌ غليظ الجسم — قد أفسدت عليه الحكايةُ صفوَه — إلى أذن جاره هامساً :

« ألا ترى أن رقة الشعور إلى هذا الحد بلاء ، وشرُّ بلاء ! »



فى ضوء القمر

« للروائى الفرنسى جى دى موباسان »

كان الأب « مارنيان » جديراً باسمه الحربى . فهو قسٌّ مديدُ القامة قليلُ اللحم مجدول ، شديدُ العصبية ، له نفسٌ سابحة على الدوام هائمة ، إلا أنها مستقيمةٌ لا التواء فيها . عقائدُه كلها ثابتة راسخة ، لم تعتورها قط ذبذبةُ الحيرة . وقد وَقَر فى وهمه عن اعتقادٍ وخالص إيمانٍ أنه يعرف ربَّه ، وأنه يدرك كنهَ حكمته ومشيئته ومرامى تصاريفه .

وكان أحياناً وهو يتمشى بخطواتٍ واسعة فى ممشى داره الخلوية الصغيرة يقوم بخاطره أن يتساءل : « لأىّ سببٍ من الأسباب كان خَلْقُ الله لهذا الشىء ؟ » فيبحث ، ويلجّ فى البحث مفترضاً نفسَه فى متبوَّأ الله تصوراً للسبب المنشود . وكان فى معظم الأحوال يُوَفَّق إلى الاهتداء إلى سبب . فليس هو من الذين يغمغمون فى فيضٍ من الإخبات والخشوع « يارب ، جلّت حكمتُكَ عن إدراك المدركين ! » . كلا ، بل هو يقول فى ضميره « أنا خادم الله ، فواجبى أن أعرف دواعى تصاريفه ، أو أن أتوسمها تخميناً إذا أعيانى عرفانُها يقيناً » .

فكل شىء فى الطبيعة يبدو له مخلوقاً على أكمل القياس المنطقىّ

وأروعه . لكل معلولٍ علةٌ . والمسائلُ والأجوبة متعادلةٌ على الدوام فى الميزان . فالله قد خلق مطالعَ الفجر لنفتح على البهجة عيونَنا ساعةَ اليقظة، وكذلك خلق النهارَ منضجاً للحصاد ، والأمطارَ للرى ، والأصائلَ تمهيداً للنوم وحَلَكَ الظلام للرقاد .

والفصولُ الأربعة مطابقة لمقتضيات الزراعة كلَّ المطابقة . ولم تخامر القسَّ قط شبهةٌ بأن الطبيعة لا مقصد لها ، وأن الكائنات الحية جميعها خاضعةٌ لأحكام الدهور واختلاف الأجواء وطبيعة المادة .

ولكنه كان يبغض المرأة . يُبغضها عفوَ سجيّته ويحتقرها بفطرته . وكثيراً ما كان يردد قول المسيح « أيتها المرأة ، أىّ وجهٍ للشبه بينك وبينى ؟ » ثم يعقب على ذلك : « لكأن الله نفسَه غيرُ راضٍ عن هذا الصنيع من صنائعه » . فالمرأة عنده هى هى ذلك الوليد الرّجس المضاعف الرجس الذى يحدثنا الشاعرُ عنه . ولقد كانت شيطانَ الغواية الذى استدرج آدم أول الرجال ، وما برحتْ دائبةً على سعيها المضلّل المُوقع فى الفتنة والهلاك الأبدى ، تلك المخلوقة الضعيفة الخطرة ، مثيرة الشجون الغامضة . وإنه على كراهته لجسمها الموبقِ لأشد كراهة لنفسها النَزوع إلى الحب .

ويالطالما شعر من النساء بعطفهنّ يشمله . فكان — مع ما يعهده فى نفسه من المناعة دون سطوتهنّ — يستشيط حنقاً ونقمةً على ما يختلج أبدَ العمر فى أنفسهن من حاجة إلى الحب .

فالله فى اعتقاده لم يخلق المرأة إلا لغواية الرجل وابتلائه . فيجب ألا يدنو الرجل منها إلا مزوّداً بأهبة الدفاع واستشعار الحذر من الوقوع فى حبائلها . وإنها فى الواقع لشبيهةٌ بأحبولة الصياد بذراعيها الممدودتين إلى الرجل وثغرِها المفترّ له .

فلا سماحَ ولا موادعةَ عنده إلا للراهبات جعلهن التبتُّلُ مكفوفاتِ الأذى . بيد أنه مع هذا يجفو فى معاملتهن لأنه يحسّ فى سويداء قلبهن المقيَّد المهيض ذلك العطفَ السرمدى الذى لا ينفك نابضاً حياً ، والذى يتجه إليه أيضاً ، مع كونه قساً

وهو يأنس ذلك فى لحاظهنّ المخضلّة من التعبُّد والتخشّع اخضلالاً لا يعهد مثلَهُ فى لحاظ الرهبان . يأنس ذلك فى سبحات وَجْدهن الصوفىّ الممتزجِ بالإحساس الجنسىّ ، فى لهفة حبهن للمسيح لهفةً تُسخط القسّ وتُثيره ، لأنها بعدُ حبٌّ نسائىّ ، حبٌّ حسىّ . يأنس ذلك العطفَ اللعين فى انقيادهن ، وفى حلاوة صوتهن وهن يتحدثن إليه ، وفى إطراقة أبصارهن وفى دموعهن المستسلمة عند ما يعنف فى تقريعهن .

فتراه لدى خروجه من أبواب الدير ينفض مِسْحَه الكهنوتىّ ، ويمضى مُهطعاً ممدودَ الخطا كأنما يفر من خطر .

وكانت له ابنةُ أختٍ تعيش مع أمها فى منزل صغير مجاور . وهو لا ينى دائبَ السعى لجعلها أختاً من أخوات الرحمة .

وكانت حسناء ، خفيفةَ الحلم عابثة . يعظ الأب فتضحك ، فإذا تكدّر

منها عانقته بشدةٍ وضمّته إلى صدرها ، وهو يحاول غيرَ مختارٍ أن يتخلص من هذه الضمة التى تُذِيقه مع هذا متعةً حلوة ، إذ تنبّه فى قرارة نفسه إحساسَ الأبوة الهاجع فى نفسِ كل رجل .

وكثيراً ما كان يحدّثها عن الله — عن ربه — وهو سائرٌ إلى جنبها فى مماشى الحقول . وهى قليلة الإنصات إليه ، ترنو إلى السماء و إلى العشب و إلى الأزهار ، سعيدةً بالحياة سعادةً تتراءى شاهدةً فى عينيها . وتنطلقُ عنه أحياناً لمطاردة بعض الهوام ، ثم تهلِّل فرِحةً وقد اقتنصتْها : « انظرْ يا خالى ، ما أَمْلَحَهَا ! لوددتُ لو ضممتُها » . وهذه الحاجةُ إلى ضمِّ متطايرِ الفراش وأكمام الزنبق تقْلق بالَ القس وتغيظه وتستثيره ، إذ يجد هنا أيضاً ذلك العطف الذى لا سبيل إلى اقتلاعه ولن ينفكّ نابتَ الجرثومة فى قلوب النساء .

وتعاقبت الأيامُ فى إثر الأيام ، و إذا بزوجةِ سادن الدير — القائمة بتدبير منزل القس — تنبئه ذاتَ يوم فى احتياطٍ وتحفظ أن لابنة أخته عاشقاً .

فهزّه ذلك هزةً عنيفة ووقع منه موقعاً شديداً . ولبث مختنق الصوت ، ورغوةُ الصابون تعمُّ وجهه ، إذ كان يحلق وقتئذ .

ولما أن ثاب إلى حالٍ يستطيع معها التفكير والكلام ، صاح قائلاً : « هذا غير صحيح . أنت تكذبين يا ميلانى ! »

فوضعت القروية يدها على قلبها وقالت : « ليقضِ اللهُ تعالى قضاءه فىّ

إن كنت كاذبةً يا سيدى الأب ، وأنا مُخبرتكَ أنها تذهب إلى هنالك كل ليلةٍ بعد أن تأوى أختُك إلى مضجعها . وهما يتلاقيان على ضفاف النهر . وما عليك إلا أن تذهب وترى بعينيك بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل »

فأمسك القس عن حكّ ذقنه بالموسى . وطفق يذهب ويجىء فى عنفٍ كدأبه فى ساعات التفكير الخطير . ولما أراد استئناف الحلاقة جرح نفسه ثلاثاً فيما بين أنفه وأذنه .

وظل سحابةَ النهار صامتاً ، منتفخ الأوداج قد امتلأ موجدةً وغضبا . ولا جرم ، فقد زادتْ فوق نقمة الكاهن على نزعة الحب الغلّاب نقمةُ الأب المعنوىّ ، والقيّمِ الوصىّ ، والموكلِ بالتهذيب الخلقىّ ، وقد رأى نفسَه مخدوعاً ، مسلوباً ، لعبتْ به طفلة . هذا هو الكربُ الأنانىّ الذى يشجى به الآباء حين تُؤذنهم الفتاةُ بأنها — من دونهم وبالرغم منهم — قد اختارتْ لنفسها الزوجَ الذى تقرّ به عينُها .

وبعد العشاء حاول الأب أن يقرأ قليلاً ، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، فازداد حنقاً على حنق . ولما دقت الساعة العاشرة تناول عصاه ، وهى عصا من البلوط رهيبةٌ يستصحبها دائماً فى جولاته الليلية عند ذهابه لعيادة مريض . وتأمل مبتسماً هراوتَه الضخمة ، ولوّح بها فى قبضة يده الشديدة الأسْر شأنَ أيدى أهل الريف . ثم رفعها على حين فجأةٍ وأهوى

بها — وهو يَصْرُف بأسنانه ويعضّ نواجذه — على أحد المقاعد فانهار قعرُه المفلوقُ على أرض الغرفة

وفتح البابَ للخروج . ولـكنه وقف على الوصيد ، مبهوتاً مأخوذاً بلألاء القمراء يفيض فيضاً قلما رأى الراؤون مثله .

ولما كان القسُّ ذا نفسٍ هائمةٍ سابحة ، من النفوس اللواتى كانت لا محالة لآباء الـكنيسة الأولين ، أولئك الشعراء الحالمين ، فقد ظل سارح الفكر مستغرقَ الحس فى غمرةِ ذلك الجمال الرائع الساجى فى جنح هذى الليلة الأضحيان .

وكان كلُّ شىء فى حديقته الصغيرة غارقاً فى الضياء الليّن اللطيف . وأشجار الفاكهة المصفوفة ترسم على أديم المشى خيالَ أوصالها المتفرّعة الدقيقه التى لا يكسو عريَها إلا القليلُ من مخضوضر الورق . على حين تعبق من النبات الباسق المتسلق على جدار بيته أنفاسُ زهرة العسل لذيذةَ العبير ، حتى لـكأنها فى حقيقة الواقع معسولة . وهذه الأنفاسُ تهفو فى الليل المقمر أشبهَ بروحٍ عاطرة .

وجعل الأب يتنفس ملءَ صـــدره ، ويعُبُّ الهواء كما يعب الخمرَ معاقرُها المدمن . ومضى متمهلاً متريثَ الخطى ، مسحوراً مدهوشاً ، وقد غابت ابنة أخته عن باله .

فلما أن صار فى وسط الحقول ، توقّف يتأمل الوادى المنبسط مغموراً بهذا السَّنى المترقرق ، غارقاً فى هذا الحسن الرقيق الدنِف الذى يأنسه

الساري في الليالي الساجية . وكانت الضفادع تُزجي في الفضاء طوالَ الآناء ترجيعَ نقيقها المقتضَب المدنيّ . والبلابل من بعيدٍ تسلسل مثلَ الجمان نغمَها الرخيم الباعثَ إلى سَبْحة الحلم دون جهدِ التفكير ، فتمزج موسيقاها — موسيقى القُبَل النابضة الطروب — بلألاء هذه القمراء التي تسبي الألباب وتتيم القلوب .

واستأنف الأب المسير ، خائر القلب من غير أن يدرى لذلك سبباً . ثم أحسّ بغتةً أنه مضعضع القوة منهوك ، وودّ لو يجلس ويُطيل هنا مكثَه ، ويُنعم النظرَ فيما حوله ، ويسبّح لله ويكبّره في بديع صنعه

وبدا هنالك صفٌّ من أشجار الحور الباذخة ينثنى وينعرج متابعاً للجدول في تعاريجه . وحولَ ضفافِ الجدول المرتفعةِ وفوقَها ينعقدُ ربابٌ لطيف ، بخارٌ أبيض تتخلله أشعةُ القمر ، وتفضّضُه ، وتجعله وضيئاً شعشعانياً . وهذا الربابُ الوضيء يلفّ مجرى النهر المتعرج بمثلِ مندوفِ القطن الخفيف الشفيف

فوقف القسُّ مرةً أخرى ، لقد خامر نفسَه في أعماقها حنوٌّ متزايدٌ لا يُغالَب .

وغشيتْه حيرةٌ وقلقٌ مبهم . وأحسّ باستفهام يخالجه من قبيل تلك الاستفهامات التي يطرحها على نفسه في كثير من الأحيان .

فيمَ يصنعُ اللهُ هذا ؟ وما دام الليلُ قد جُعل للنوم ، للسباتِ وفقدان الوعي ، للراحةِ ، للنسيانِ الشامل ، فما الداعي إلى جَعْلِه أبدعَ من النهار

رونقاً وحسناً ، وألطف من الأسحار والأصائل . وما بال هذا الكوكب الساري الباهر، يطلعُ بطلعتهِ الشاحبة فيكون أشجى شاعريةً من الشمس ، وكأنما هو بضيائه الليّن الذي لا يغلو غلوّها في كشف الأستار وفضح الأسرار مهيأٌ للتجلية عن أشياء ألطفَ مادةً وأدقَّ معنًى من أن يجلوها النور . ما بال هذا الكوكب الساري يغشى الليلَ بضيائه حتى تَشفَّ حنادسُه ؟

ما بال أبرع الطير الصوادحِ إنشاداً ، وأرخمها توقيعاً ، لا تستجمّ ولا تهدأ كسائر الطير ، بل تُنشيء تهزجُ وتترنم في جنح الليل الساجي ؟ فيم اشتمال هذا الكون بشِبْهِ نقابٍ فلا هو محجّبٌ ولا هو سافر ؟ فيم وجيبُ القلب هذا الوجيب ، وانفعال النفس هذا الانفعال ، وتفتّرُ الأوصال وكلالُ الجسد هذا التفترَ وهذا الكلال ؟

فيم إظهار هذه المفاتن التي لا يبصرها الناس إذ هم في مضاجعهم راقدون ؟ ولمن هذا المشهد الجليل ، هذا الفيض الشعريّ تُغدقه السماء على الأرض ؟

لم يدرك الأب لذلك سببا

وإذا هنالك في أطراف المرج ، تحت قبابِ الشجر المبلل بالرباب الوضيء ، خيالان متراثيان يسيران جنباً إلى جنب .

الرجل أطول قامةً ، وهو يماشي صاحبتَه مطوّقاً جيدها ، ويلثم من حين لآخر جبينَها . وقد انبعثت الحياةُ فجأةً منهما في هذا المنظر الجامد الماثل

الذى يحيط بهما كأطارٍ سماوىٍ صِيغَ لهما . وكأنما هما معاً كائنٌ واحد ، الكائن الذى اختصتْه القدرةُ بهذه الليلة الهادئة الساكنة . وكانا مُقبلَيْن من بعيدٍ صوبَ القسّ ، كأنهما جوابٌ حىٌّ ، الجواب الذى أرسله المولى على سؤاله

ولبث القسّ واقفاً ، خافقَ القلب مخبولاً ، وخيّل إليه أنه يرى صفحةً من التوراة ، شيئاً أشبه بغرام راعوث وبوعز ، آيةً من آيات المشيئة الالهية بين معالم مشهدٍ رائعٍ من تلكم المشاهد التى تتحدث عنها الأسفارُ المقدسة . وطفقت تدوّى فى رأسه ترانيمُ من نشيد الأنشاد، بما فيه من هتفاتِ الشوق ودواعى الحسّ وكلّ حرارةِ الشعر فى تلك القصيدة الملتهبة محبةً وعطفا .

عند ذاك قال فى نفسه : « لعلّ اللهَ خلق هذه الليالى ليسبغ أروعَ الأستار على حب البشر » .

ونكص على أعقابه أمام هذين الإلفَيْن المتعانقَيْن وهما يتمشيان .

ولكن ، أليست هذه ربيبتَه ، ابنة أخته ! بلى ، ولكنه قد راجع نفسَه الآن فيما جاء من أجله تسليماً لمشيئة الله . أفيحرّم الله الحبّ التحريم كله ، وهو يحوطه عياناً بمثل هذا البهاء المبين ؟

وولّى القس مدبراً ، مشدوهاً ، يكاد يتعثّر من الخجل ، كأنما اقتحم هيكلاً لا يحقّ له دخولُ حَرَمه .



الجـــواهر

« للروائى الفرنسى جى دى موباسان »

التقى المسيو « لنتان » بهذه الفتاة فى إحدى الليالى بمنزل وكيل المكتب ، فإذا هو متيمٌ بها كالقنيص فى الشَّرَك استحكمتْ عليه حلقاتُه واجتمعت أطرافُه .

وكانت الفتاة ابنة جابٍ من جباة الضرائب فى الأرياف قضى نحبه من سنوات عدة . فقَدِمت بها أمُّها إلى باريس ، وكانت تتردد على بعض الأسر من أهل الطبقة الوسطى فى الحىّ على أمل أن تزوج الفتاة . وكانتا بحالٍ رقيقةٍ ولكنهما من ذوات الشرف والوداعة ولين العريكة . وكانت الفتاة مثالاً للمرأة الفاضلة التى يتمناها الفتى العاقل لتكون الفتاة الأمينة على حياته . جمالُها الخَفِرُ فيه معنًى من طهر الملائكة ، وابتسامتها الخفية التى لا تفارق شفتيها كأنها ظلٌّ يعكس نقاءَ سريرتها .

فالناس على اختلافهم ألسنةٌ تلهج بإطرائها ، وعارفوها جميعهم لا يفرغون من تكرار قولهم : « سعيدٌ من يتخذها زوجاً . هيهات يوجد خيرٌ منها » .

وكان المسيو لنتان وقتئذ كاتباً أول فى وزارة الداخلية يتقاضى مرتباً قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك فى السنة فخطبها وتزوجها .

ولقد هنىء الرجلُ بعشرتها هناءةً فوق التصديق . وكانت تدبر شئون بيته حتى لتسبهما لحسن التدبير من أهل الترف . وكانت لا تدع لوناً من ألوان الرعاية والرقة والتحبب إلا حاطتْ به زوجَها . وبلغ من فتنتها أنه كان بعد ستة أعوامٍ طوالٍ من لقائهما أشدَّ لها حباً ، وبها شغفاً منه فى الأيام الأولى .

وهو لا يأخذ عليها غير أمرين . ولعُها بالمسارح ، وكلفُها باقتناء الجواهر الكاذبة . وكانت صواحبُها — من نساء الموظفين متوسطى الحال — يوالينها فى كل حين بالمقاصير فى الروايات التمثيلية ذات الرواج والشهرة ، بل فى الليالى الافتتاحية من تمثيلها . وكانت تجرّ زوجَها راضياً أو كارهاً إلى هذه الملاهى فيعيا بها أشدَّ الإعياء بعد عمله طوال اليوم . ولقد رجاها وألحف فى الرجاء أن تعفيه ، وتذهب إلى التمثيل فى صحبة سيدةٍ من معارفها تعود بها بعده ، فتمنعتْ ، وطال تمنّعُها ، لِما تجد فى هذا التصرف من قلة اللياقة . وأخيراً قبلتْ مرضاةً له ، فحمد لها ذلك كلَّ الحمد

وهذا الولع بالمسرح سرعان ما أشعرها الحاجةَ إلى الزينة ، فلم تَعْدُ بها حدَّ البساطة . حقيقةً أنها كانت دائماً آية على حسن الذوق ولطافة الحس إلا أنها بعدُ زينةٌ متواضعةٌ . ومع هذا فإن حسنها الحلو ، حسنها الصبيح المستكين الذى لا يُغالب ، كان كأنما يكتسب من بساطة ثيابها طعماً جديداً ووقعاً مستظرفاً . ولكنها إلى هذا تعودت أن تقرّط أُذُنيْها بحَجَريْن متلألئين يشاكلان الماس ، وأن تتخذ قلادةً من اللؤلؤ المكذوب

وأساورَ من ذهبٍ مموّه وأمشاطاً محلاة بضروب من الخرز تمثّل شذورَ الجواهرَ .

وكان زوجها ينكر بعض الشيء هذا الولع منها بالبهرج ، ويكرر عليها القول :

— « ياعزيزتى ، إذا لم تملك الغانيات اقتناء الجواهر الحقيقية ، فحسبُها أن تبدو حاليةً بجمالها وصباحتها ، و إنها لأنفسُ الحلىّ »

فكانت تبتسم ابتسامةً حلوة وتقول :

— « ماذا تريد ؟ إنى أحب هذا ، وهذا عيبى . إنك على الحق ، وما فى ذلك عندى أدنى ريب . ولكن المرء لا يَخلق نفسه خَلقاً آخر . أتُرانى كنتُ أعبد الحلىّ ، أنا ! »

فيهتف الزوج باسماً :

— « إنّ لك ذوقُ نساءِ النوَر »

وفى بعض الأحايين ، وهما وحيدان فى المساء إلى جانب المصطَلَى، تقوم فتأتى إلى المائدة التى يتناولان عليها الشاى بعلبةِ الأَدَم المدبوغ التى أودعتها « الخردة » على حدّ تعبير زوجها ، وتُقْبل على هذه الحلىّ المقلّدة تُمعن فيها النظرَ بهيام كأنها تتملى منها بمتعةٍ روحية عميقة . ثم كانت تصرّ على أن تجعل فى عنق زوجها عقداً من هذه العقود ، وتضحك ملء فيها و بقلبها أجمع وهى تقول : « إنك لمضحكٌ حقاً ! » ثم ترتمى بين ذراعيه وتقبّله فى فتونٍ ووَلَه .

وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء كانت فى الأوبرا وعادت ترتعد من البرد . وأصبحت فى اليوم التالى تسعل . ولم تمض أيامٌ ثمانية حتى كانت قد اشتدّتْ بها النزلةُ الصدرية وعاجلتها المنية .

وكاد لنتان يلحقها إلى القبر . وبلغ من يأسه أن علاهُ الشيبُ فى مدى شهرٍ واحد . فهو يبكى صباحَ مساء ، ونفسُه الجريحة يمزقها ألمٌ لا يطاق ولا يُستطاع الصبرُ عليه ، رهينُ الوجد نجىُّ البلابل ، لا تبرح تساوره الذكرى وتتمثل له من الفقيدة الابتسامةُ والصوتُ والحسنُ الخلاب ، ولم يخفف تطاولُ الأيام من لوعته . فكثيراً ما تراه فى مكتب عمله وقد أقبل زملاؤه يسمرون سمرَهم فى شئون يومهم ، فإذا به قد انتفخ شدقاه ، وتقلّص أنفه ، وتغرغرت عيناه بشآبيب مائهما وانقلبت سحنتُه انقلاباً فظيعاً ، وأكبّ ناشجاً منتحباً .

ولقد أبقى مخدعَ قرينته على حاله ، يختلى فيه بنفسه كلَّ يوم ليذكرها ويفكر فيها . فكان أثاثُ مخدعها وثيابُها جميعاً فى مواضعها كما خلّفتها آخر يوم من حياتها . ثم إن الحياة شقّت عليه وتصعّبت . فهذا راتبُه الذى كان بين يدىْ زوجته يسد حاجات البيت كافةً قد بات لا يكفيه اليومَ وحده . فهو يسائل نفسَه مبهوتاً كيف استطاعت بتصرفها أن توفّر له دائماً شربَ جيّد الخمر وتناول شهىّ الطعام مما يُعييه بموارده المتواضعة أن يحصل اليومَ عليه . فاستدان ، وسعى وراء المال سعْىَ المحاويج تضطرهم الحال إلى الاحتيال له بشتى الوسائل . وأخيراً أصبح ذات يوم فألفى نفسه صفر اليدين قبل

نهاية الشهر بأسبوع كامل ، فدار فى خَلَده أن يبيع بعضَ ماعنده . وسرعان ما خطر له التخلصُ من « الخردة » التى كانت لامرأته . فإنه ليضمر فى قرارةِ نفسه شبْه ضغينةٍ على هذه البهارج « خُدعةالأبصار . » ولا جرم، فهى موضع ملاحظته من قبلُ ومثارُ إنكاره . أن مجرد رؤيتها كلَّ يوم ليفسد عليه بعضَ الافساد ذكرى زوجته الحبيبة .

وقلَّب طويلاً فى هذه الكومة من الحلىّ البراقة التى خلفّتها — فإنها ما برحت إلى أواخر أيامها ماضيةً على اقتنائها سادرة ، تجىء كلَّ يوم بتحفةٍ منها جديدة — ووقع اختيارُه على العقد الكبير الذى كانت تستحبه وتُؤثره على غيره ، وهو يعدل بحسب تقديره ستةَ فرنكات أو ثمانية ، لكونه أدقَّ صنعةً من المعهود فى أمثاله من زائف الحلىّ . فأودعه جيبَه ومضى إلى وزارته يسلك إليها الشوارعَ الكبرى ملتمساً حانوت جوهرى يطمئن إليه .

وأخيراً وقع بصره على الحانوت المنشود ، فدخله خجلانَ يتعثّر لاضطراره إلى عرض فقرِه وسوء حاله ساعياً إلى بيع شىء كهذا خسيسِ القيمة . وقال للتاجر :

— « سيدى ، أودّ أن أعرف ما تقدره لهذه القطعة »

فتناول الرجل القطعةَ ، وفحصها ، وقلّبها ، ووزنها بكفّه ، وعمد إلى المجهر ودعا إليه كاتبَ حساباته وأسرّ إليه بعضَ الكلمات . ثم وضع العقد على دكته ، ورمقه من بعيدٍ لينظر إلى وقعه وتأثيره

وضاق المسيو لنتان بهذه الرسميات ، وفتح فاه ليقول : « أوه ، إنى لأعلم حقّ العلم إنه شىء لا قيمة له » لولا أن سبقه الجوهرى إلى الكلام :

— « سيدى ، هذا يساوى بين الاثنى عشر ألفاً إلى الخمسة عشر ألفاً من الفرنكات ، وأنا لا يسعنى شراؤه حتى يحيطنى علماً بمصدره »

فحملق الأرملُ بعينيه ، وظل فاغراً فاه لا يعقل شيئاً . وأخيراً نبس مغمغما :

— « ماذا تقول ؟ . . . أواثقٌ أنت ! »

وحمل الرجلُ اندهاشَه على غير محمله . وقال فى لهجة جافة :

— « يمكنك أن تتحرى فى محل آخر إن كانوا يزيدونك فيه . أما عندى فيساوى خمسة عشر ألفاً على أكثر تقدير . فإذا لم تجد خيراً من هذا الثمن فعاودنى »

واستردّ المسيو لنتان العقد فى بلاهةٍ وخبال ، وانصرف مدفوعاً بحاجة مبهمة إلى الخلوة بنفسه والتفكير . على أنه ما بلغ الطريقَ العام حتى كاد يأخذه الضحك ، وأخذ يحدّث نفسه : « يا له من مغفل . أوه ! يا له من مغفل ! ليتنى مع هذا أخذته بكلمته ! ها كم جوهرياً لا يعرف الزائفَ من الصحيح »

ودخل عند تاجرٍ آخر فى أول شارع دى لابيه . فما كاد يقع نظرُ الصائغ على الحلية حتى هتف :

— « آه ! وايم الله . إنى لأعرف حقّ المعرفة هذا العقد . إنه من عندى »

فقال مسيو لنتان وهو شديد الارتباك : « كم يساوى ؟ »

— « سيدى ، لقد بعتُه بخمسة وعشرين ألفاً . وإنى على استعداد لأخذه بثمانية عشر ألفاً ، إذا تفضلت — عملاً بالتعليمات الرسمية — فدَلَلْتنى كيف صار إليك »

وفى هذه المرة تساقط مسيو لنتان على المقعد كمن أقعدته الدهشة ، وتمتم : « ولكن . . ولكن . . أمعنِ النظرَ جيداً يا سيدى . كنتُ حتى الساعة أحسبه مصطنعاً »

فقال الجوهرى : « أتتكرم يا سيدى بذكر اسمك ؟ »

— « أجل . اسمى لنتان ، وأنا موظف بوزارة الداخلية ، وقاطن فى المنزل رقم ١٦ شارع الشهداء »

وفتح التاجر دفاتره وقلّب فيها ثم صدع بالقول :

— « هذا العقد أرسل حقيقةً إلى عنوان مدام لنتان رقم ١٦ شارع الشهداء فى العشرين من يوليو سنة ١٨٧٦ »

وحدّق الرجلان كلٌّ فى عينىْ صاحبه ، وقد طار لبُّ الموظف من الدهش ، واستوحش التاجرُ من ناحيته وتوسّم فيه لصاً . وقال :

— « هلا تكرمتَ بترك هذا الشيء أربعاً وعشرين ساعة لا أكثر ، وأنا معطيك عنه إيصالاً »

فتمتم المسيو لنتان : « أى نعم . يقيناً » .

وخرج وهو يطوى ورقة الإيصال و يضعها فى جيبه ، ثم عبر الشارعَ ، وأَصعد فيه ، ثم أدرك أنه ضلّ الطريق فانحدر إلى التويلرى ، وجاز السين ، ثم أدرك مرةً أخرى ضلالَه فعاد إلى الشانزلزيه وليس فى رأسه فكرة جلية . وحاول جهدَه أن يتعقَّل و يفهم . إن امرأته ما كانت لتَقْدر على شراء شىء ذى قيمة كهذا . كلا ، كلا . إذن ، فهذا هدية ! هدية ! هدية ممن ؟ ولماذا ؟

وتوقف الرجل ، وظلّ واقفاً وسط الطريق . وطاف به الشكُّ الفظيع — هى ؟ — و إذن فسائرُ الجواهر الأخرى كانت أيضاً هدايا ! وخيّل إليه أن الأرض تميد تحت قدميه ، وأن شجرةً تهوى أمامه ، فمد ذراعيه وارتمى فاقدَ الحس .

واستفاق من غشيته فى صيدليةٍ حمله إليها بعضُ السابلة ، فاستقلّ عربةً وأوى إلى منزله .

وجَنَّ الليلُ وهو يبكى بكاء الواله ، و يعض منديله حتى لا يُسمع نشيجُه ، ثم أوى إلى الفراش مرهقاً من التعب والحزن ، ونام نوماً ثقيلا .

وأيقظه شعاعٌ من الشمس ، فقام فى تثاقل ليمضى إلى وزارته . بيد أنه يشقّ على المرء العملُ بعد رجّاتٍ عنيفة كهذه . فجرى فى خَلَدِه أن فى إمكانه الاعتذار لدى رئيسه فكتب إليه . ثم تمثل له أَنْ لا بد من العودة إلى الجوهرى ، فاستخزى ، وعَلَتْهُ حمرةُ الخجل ، وطال به التفكير.

إنه لا يمكن بحالٍ أن يدع العقد عند الرجل . فارتدى ثيابه وخرج .

وكان اليوم صحواً رائقاً ، والسماء الصافية ممدودٌ رواقُها على المدينة ، فإذا هى من البهجة كمن يهشّ و يبتسم . والمتنزهون من ذوى الفراغ ماضون سَبَهْللاً وأيديهم فى جيوبهم .

وحدّث لنتان نفسَه وهو يلحظهم يعبرون : « ما أسعد المرء ذى الغنى والثراء ! آه ، ليتنى كنت غنياً ! »

وأحسّ بالجوع . إنه لم يذق طعاماً منذ الليلة البارحة . ولكنه مفلسٌ خالى الوفاض . فتذكر العقد . ثمانية عشر ألف فرنك ! إنه لمبلغٌ وأى مبلغ !

فصار إلى شارع السلام ، وجعل يذرع الإفريز طولاً وعوضاً تجاه الحانوت . ثمانية عشر ألف فرنك . وهمّ بالدخول عشرين مرةً فكان الخجل يمنعه .

ولكنه كان جوعان ، جدّ جوعان ، ولا فَلْس معه .

وحالما أبصره التاجر ، بادر وقدّم له فى أدبٍ مقعداً وهو يهشّ فى وجهه ، وأقبل كتبةُ المحل أنفسُهم يلحظونه عن عُرُضٍ ولوائحُ السرور فى عيونهم وشفاههم .

وقال الجوهرى : « سيدى ، لقد استعلمتُ . فإذا كنتَ على عزمك فإنى على استعدادٍ لدفع القيمة التى عرضتُها عليك »

فغمغم الموظف : « أجل » .

أخرج الصائغ من أحد الأدراج ثمانى عشرة ورقة كبيرة ، وعدّها ، ومدّ يده بها إلى لنتان ، فأمضى بها إيصالاً صغيراً وأودع المالَ فى جيبه بيدٍ مرتجفة .

وحين همّ بالانصراف التفت إلى التاجر الدائمِ الابتسام ، وتمتم خافضَ الصوت :

— « عندى ، جواهر أخرى . . جاءت . . عن طريق الميراث نفسه ، فهل يوافقك أن تشتريها منى كذلك ؟ »

فانحنى التاجر وقال : « نعم ، يا سيدى »

وخرج أحدُ الكتبة ليضحك ما شاء أنْ يضحك ، وأخذ آخر يسعلُ متعسّفاً ، أما لنتان فقال محمّر الوجه متجلداً متوقراً : « سآتيك بها »

واستقلّ مركبةً ومضى فى طلب الحلىّ . و بعد ساعةٍ عاد إلى التاجر ولم يتنـاول بعدُ طعامَ فطوره . وطفقا يفحصان الأشياء قطعةً قطعةً و يسوّمان كلّ واحدة . وكان معظمها من الحلى .

وأخذ لنتان يساوم فى الأثمان و يتغضّب ويطلب الاطلاعَ على دفاتر البيع ، وكان صوته يتعالى كلما ارتفع السعر .

فأقراطُ الماس الكبار بعشرين ألف فرنك ، والأساور بخمسة وثلاثين ألفاً ، والمشابك والخواتم والأنواط بستة عشر ألفاً ، وحلية من الزمرد والياقوت الأزرق بأربعة عشر ألفاً ، وفريدة من يتائم الدرّ منوطةٌ بسلسلة ذهبية بأربعين ألفاً . وتبلغ الجملةُ مائة وستة وثمانين ألف فرنك .

وهنا قال التاجر فى بساطةٍ ساخرة :

— « هذا تراث من أودع فى الجوهرات كلَّ ما اقتصد من مال »

فرد لنتان فى وقار :

— « إنْ هى إلا وسيلةٌ كغيرها من وجوه توظيف المال »

ثم انصرف بعد أن استقرَّ رأيُه مع الشارى على إجراء مراجعةٍ أخرى من آل الخبرة فى الغد

فلما أن صار فى الطريق العام ، نظر إلى عمود القندوم ، وفى نفسه أن يتسلقَه كأنه لعبة الصارى ، والتفتَ نخفَّت نفسُه إلى أن يلعب القفزَ فوق تمثال الإمبراطور القائم هناك فى الفضاء .

ومضى فتناول الغداء فى مطعم فوازان ، وشرب خمراً من التى ثمن زجاجتها عشرون فرنكاً .

ثم استقلَّ عربةً وطاف فى غاب بولونيا ، وكان يرمق المركبات ومَن فيها بشىء من الزراية والاستخفاف . وبه شوقٌ جامح مستبدٌّ إلى أن يهتف فى الروّاد : « أنا أيضاً غنىّ ، أنا غنى . إنى أملك مائتى ألف فرنك ! »

ثم تذكر الوزارة . فأشار للسائق أن يقصدها ، وعمد إلى الرئيس معلناً :

— « لقد أتيت يا سيدى مقدِّماً إليك استقالتى . لقد ورثت ثلثمائة ألف فرنك »

ومضى يصافح زملاءه السابقين ويُفضى إليهم بما انتواه من حياة جديدة . ثم تناول العشاء فى المقهى الإنجليزى .

وهنا ألفى نفسه إلى جانب سيّدٍ استوجهه ، فحكّت فى نفسه رغبةٌ ملحة غلاّبةٌ ، فإذا هو يُفضى إليه فى دالّةٍ وازدهاء أنه ورث أربعمائة ألف فرنك .

وللمرة الأولى فى حياته لم تسأم نفسه المسرح ، وقضى ليلته مع بنات الهوى .

وبعد شهورٍ ستة تزوج . وكانت زوجُه الثانية من الحرائر جدّ شريفة ، ولكنها كانت عَسِرةَ الخلق ، فلقى معها عنتاً شديداً .



بلقيس (ملكة سبأ)

« بقلم عبد الرحمن صدقى »

كانت الليلةُ من تلك الليالى الرقيقة الساجية ، التى كأنما تشتمل فى طياتها على أسرارٍ غريبة ونجاوَى عميقة ، تحسّ النفسُ لطفَها ولا تدرك كنهها . وقد طلع القمر وضّاحَ الجبين ، ندِىَّ الصفحة ، روحانىّ الطلعة سارياً كأنه يحلم حُلْمَ الليلة ، وانبسطت الرمالُ فى ضوئه الفضىّ بيضاء كأنها نفسٌ طاهرةٌ عذراء

ورفعت بلقيسُ السترَ الحريرىّ المسبل على باب خيمتها الملكية

الكلُّ حولها نيام . لقد برّح بالركب طولُ المسير ووعثاء السفر الطويل . لكم قطعتْ رواحلُها من سهوب وجابتْ من قفار مذ غادرتْ أرضَ اليمن . إنه لفضاء لا آخر له من الرمال القاحلة الحائلة اللون من صَخَد الشمس ، ما برح يطوى فيافيه مرحلةً بعد مرحلة هذا الموكبُ الحافلُ الزاهر ، أشبه ما يكون بموكب الأمل فى حياة البشر .

وتطلّعتْ بلقيس على مدّ البصر . فاذا سوادٌ جاثم . ذلك ولا ريب جبل صهيون . وكان الأدلّاء قد أخبروا أنهم منه على مسيرة بعض يوم ،

فكان أَنْ أمرت بلقيس بالنزول حتى يستريح الرَكْب فاذا أصبحوا أصلحوا من شأنهم ودخلوا المدينة فى أكمل زينة

وانصرفت بلقيس لحظةً إلى أحلامها ، واستغرقت كما تستغرق فى مثل سنّها الفتياتُ وإن كنّ ملكاتٍ .

ثم عاودت النظرَ إلى ناحية صهيون فى سُدْفة السحَر . فبدا الجبلُ متجهماً وعراً ، وظهرت على قُنَّته مدينةُ داود كالقلعة الحصينة عاليةَ الأسوار ممتنعةً فسَهَمَتْ بلقيس ، وعرضتْ لذهنها وقتئذ صورةُ بلادها بأوديتها ومراعيها ، ومياهها الجارية وبساتينها البهيجة ، مستقبلةً القادمَ إليها بطلعةٍ ناضرة وابتسامةٍ ساحرة . ولكن بلقيس لم تلبث أن انتبهت فجأةً ، وقد ترامت فى الأفق أشعةُ الشمس البازغة ، فاذا المدينة ينعكس منها وهجٌ كالنضار يأخذ بالأبصار ، ولاحت من أعلى الجبل لعينى بلقيس الدَهِشَةِ المأخوذة شرفاتُ المعبد العظيم الذى عَمَره ابنُ دواد ووارث ملكه سليمان الحكيم .

ونادى المنادى فى الركب ، فانتبه الجميع . ولم تمض لحظةٌ حتى كان الموكب فى طريقه مُصعداً إلى باب دمشق من أبواب المدينة

وكانت الأخبار قد أتت سليمان وشاعت فى المدينة وما جاورها . فما كاد يرتفع النهار حتى هرع الناس يرقبون الموكب . وانتشرت الجند من المرتزقة مصطفةً على مسافاتٍ متقاربة يحرسون الطريق من باب المدينة حتى قصر الملك . واشتدّ بالناس التعبُ وطال الانتظار فى وقدة الشمس . وإذا

بهزةٍ كالريح الزعزع تسرى فى الجموع الحاشدة فتتدافع مناكبهم وتضطرب صفوفهم وقد اشرأبّت الأعناقُ وامتدت الأبصار . لقد أهَلَّ موكب الملكة الغريبة القادمة وبدت طلائعه فى أول الطريق

وكان يتقدم الموكبَ حرسُها وهم فرسانٌ ذوو بأس على خيلٍ عرابٍ سوابحَ يكبحون لُجُمَها وهى نَمِلَةُ القوائم صاهلة

ثم انجلت الكتائبُ عن مطلع الملكة فى أبرادها اليمانية الناعمة المفوّفة سبعة أبرادٍ بعضُها فوق بعض ، متفاوتة الطول مختلفة الشيات والألوان ، فيها المزركش ، والموشّى ، والمطرّز بأصناف الزهر والريحان وأشكال الطواويس والغزلان ، والمنسوج بالذهب والملبّس بصفائح الفضة ، وجميعُها مرصَّع باللآلىء وأنواع اليواقيت. وقد انعقد على رأسها الصغير إكليلُ الملك. وعلى صدرها القلائدُ ، وفى ساعديها الدمالج ، وأصابعها السبْطة المخضوبةُ البنانِ مختَّمةٌ بفصوصٍ كبيرة من الحجارة الكريمة . وفى قدميها خفٌّ مرصع بالشذور والجُمان . وهى مستندة على سريرٍ من الذهب مفروشٍ بجلود الفهود والنمورة ، ومركَّبٍ أحكم تركيب على ظهر فيلٍ عظيم الجثة أبيض اللون يقوده رجلان من الفيّالة الأحباش ، عملاقان عريضا الألواح مفتولَا العَضَل عاريان حتى حقويهما ، يقابلان بسوادِ جلدِهما بياضَ نابى الفيل فيبدو النابان العظيمان أشدَّ بياضاً وأروع ظهوراً . وكان الفيل يتهادى كالفخور المدلّ بما يحمل ، مطوّحاً رأسَه فى رفقٍ يمنةً ويُسرةً ، ورافعاً خرطومَه حيناً بعد حينٍ كأنما يحيى عن الملكة جموعَ المستقبلين

وقبل أن تستفيق الجموعُ المحتشدة على جانبي الطريق وفوق الجُدُر والسقوف من دهشتها ، وتكفَّ عن التهليل والتلويح بسعف النخيل ، أقبلت قافلةُ الجمال مثقلةً بالأحمال من نفائس الهدايا والألطاف ، ذهبٌ وطيبٌ وجواهر ثمينة فى صناديق من الآبنوس مفاليقُها من الفضة ، ثم النجائبُ عليها هوادج الوصائف والغلمان من حورٍ وولدان ، يليها العبيدُ والخصيان .

وفى أثناء ذلك كان سليمانُ بين شيوخ كهنته ووجوهِ دولته وقواد جنده وخاصةِ بطانته فى قاعة العرش الكبرى ينتظر الضيفة الكريمة القادمة من أقاصى البلاد لتحيته .

وكان الجميع فى أكمل أهبةٍ وأجمل بزّةٍ ، إظهاراً لعظمة المُلْك وعزّته حتى تغشى جلالتُه الأبصار وتعنو له الجباهُ وتمتلىء منه الصدورُ رهبةً . وكان سليمان فى حلةٍ نسيج وحدها من حلل فينيقية باهرةٍ فاخرةٍ من سندس أخضر ، منسوجةٍ بالذهب والفضة . وفى قدميه خفّان من أدَم أحمر وهو متمنطقٌ بسيف مرصع ، وعلى رأسه الذى وخط المشيبُ مفارقَه تاجٌ من الذهب السبيك له سبعةُ أركانٍ على كل ركن لؤلؤةٌ شديدة الوميض متألقة .

وأذِن الموكّلُ بالباب أنْ قَدِمَتْ الملكة . فاذا صفّان من الحجّاب يتقدمون ، ولقضبانهم المذهبة الطويلة قرعٌ خفيفٌ على رخام الردهة . ثم يتنحّون على الجانبين . وتظهر بعد لحظةٍ على عتبة المجلس ، بلقيسُ فى كل

مَيْعةِ صباها وسحرِ جمالها وحفْلِ زينتها وروعة جلالها . وتمشى و بين يديها كبيرُ الحجّاب إلى عرش سليمان .

وكان سليمان على سريره ، جليلَ المظهر عظيم الشأن ، لا يبدو التأثرُ عليه ، وكأنه التمثال المعبود يقصده الحجيجُ من كل صوب لقضاء المناسك وتقديم الهدايا والقرابين .

وعندما اقتربت بلقيسُ من العرش انتحى كبير الحجّاب جانباً ، فاذا هى أمام سرير عظيمٍ من عاج مغشًّى بذهبٍ إبريز ، وله ظهرٌ استدار أعلاه وتكلّل بأنواع الجواهر ، وله مسندان عريضان ليتكىء الجالسُ عليه . و إلى المسندين أَسَدان قائمان ، وكذلك على حِفاف الدرجات الستّ أُسُودٌ من الجانبين ، وجميعها من الذهب مصوّرةً مجسّمةً ، وقد اجتمع لها ما لأُسُود الشَرَى من الرهبة لما بلغته من صدق المحاكاة و إحكام الصنعة

ورفعت بلقيس فى خشوعٍ عينيها إلى سليمان ، وحيّته تحيةَ الإعجاب والإجلال ، فقام سليمان بردٍّ تحيتها ، ورحّب بمقدمها وطيّب نفسَها وقرّب إليه مجلسَها .

و بعد تمام حفلة الاستقبال والفراغ من مراسمها ، و بعد أن استجمّت الملكة وأخذت حظَّها من الراحة ، خرج بها سليمان حتى تنظر إلى بيت الرب الذى بناه ، وقد أخذت عينيها فى الطريق أصنافُ الزروع على أطراف الجبال ، ومراعى الكلأ وأعراش الكروم ، ودوح الأرز وأزهار الحقول . ثم دخلت البيتَ المقدس ، فراعها اتساعُه وارتفاع سماكه . وتأملت

أرضَه المفروشة بأخشاب السرو ، واستشرفت إلى طباقه المتراكبة طبقاً فوق طبق ، وتلفتت إلى حيطانه وسقوفه المغشّاة بالذهب ، وتطلعت إلى زخارفه من ثمار و براعم أزهار ، ونقوشه المنقورة على هيئة الأملاك منشورة الأجنحة وجميعُها مغشّاة بالذهب الخالص . وأرسلت طرفها إلى الساحة الداخلية حيث مذبح المُحْرَقات ، وحيث الحوض النحاس المسمّى بالبحر المسبوك ، قائماً على اثنى عشر ثوراً مصوّرةً مجسمة ، كلٌّ ثلاثة منها متوجهةٌ شَطْرَ جهةٍ من الجهات الأربع ، ولمحت الهيكلَ حيث يُحرق البخور في قدسه ، وحيث تابوت العهد مودعٌ منه في قدس الأقداس . ولولا جذبُ سليمان لها لوقفت بلقيس في كل موضعٍ دهراً ولهتكت من سر أقداسه ستراً

فلما أن عادا جلس سليمان للمظالم ، وجعل يقضي فيها واحدةً بعد الأخرى و بلقيس حاضرة . فلم تعرض له مشكلةٌ إلا أوضحها ، ولا غامضة إلا جلاها ولا رمز إلا حلّه . فتحققت أن الله قد آتى سليمان حكمة وعلما . حتى إذا فرغ وهمّ بالقيام أتته امرأتان تختصمان إليه في وليدٍ تدّعى كل واحدة منهما أنه ولدها ، فقال سليمان لسيّافه : « اقطع الصبى نصفين ، وأعط لكل واحدة نصفه » . فقالت إحداهما : « نعم ، حتى لا يكون لى ولا لها » . وقالت الأخرى : « ادفعه إليها ، أيها الملك ، ولا تقتله » . فبرح الخفاء وكشف سليمان أنه ابنها ، فدفعه إليها .

عندها لم تملك بلقيسُ نفسَها ، وقامت بين يديه قائلة :

« كان حقاً إذنْ ما تَرَامى إلىّ في بلدى عن عظيم قدرك وحكمتك .

لقد كنتُ لا أصدِّق أُذُنى . حتى جئتُ فرأيتُ بعينى أنهم بكل ما رَوُوا لم يبلغوا بعضَ ما أرى . فأنت أبلغ حكمةً وأوفر نعمةً من كل ما جرى على لسانٍ وسارت بذكره رُكبان ، هنيئاً لقومك ، هنيئاً للواقفين دواماً بين يديك السامعين حكمتك » .

***

وأقبل المساء ودار الحديث بين سليمان و بلقيس فيما يعنيه و يعنيها من شئون الملك وتدبير المعاملات ، وعن اتفاقاته التجارية مع فرعون مصر وملك صُور ، وعن سفنه المنشئات الجوارى كالأعلام فى بحر سُوف* وقوافله السيّارة فى الصحراء حاملةً إليه تجارة الهند . .

وكانت بلقيس تُذاكره جميعَ ذلك وفى نفسها شئ يشغلها . وأخيراً فى فترة سكوتٍ قالت وهى لا ترفع إليه بصرَها ، والحياء يكاد يعقد لسانها :

— هل لى أن أعرف مَن شوليت التى ذكرتَها ؟

— من ؟

— شوليت

— ما أذكر أننى قلتُ شيئاً كهذا فى حديثنا .

فأُرْتِجَ على بلقيس ، ثم غالبت حياءَها وقالت فى صوت خافت :

— نشيد الانشاد . . « ارجعى ارجعى ياشوليت »

— نشيد الانشاد . .

— « مَنْ المقبلةُ كطلعة الصبح ، الوضَّاحةُ كصفحة القمر ، الطاهرة كنور الشمس ولكنها كالجيش المنشورة أعلامُه »

---

* البحر الأحمر .

— أجلْ . .

— «ما أجملك ياحبيبتى، ما أجملك . عيناك حمامتان من وراء نقابك .
شَعَرُكِ كقطيع الغنم المتدافعة على سفح جبل جلعاد ، ثناياك كالنعاج
المجزوزة البيضاء الصادرة عن عين الماء ، شفتاك سِلْكٌ من القِرْمِزِ ،
وفمك طيِّب ، وخدك فلْقة رمانة . كل ما فيك جميل يا حبيبتى . . . »

— « مبرَّأة من كل عيب »

— وأحسبها كانت سمراء ، مثلَنا أهل اليمن ، لقد جرتْ هذه الصفةُ
على لسانها فى النشيد

— ماذا ؟

— « أنا سمراء ولـكن جميلة ، كخيام قيدار وقباب سليمان » . . .

وأما حبيبها فتتغنى به « حبيبى أبيض اللون مشربٌ بحمرة ، يتميز
من بين الألوف . رأسُه ذهبٌ إبريز ، وطُرَرُ جبينه هفافةٌ مسترسلة .
حبيبى نَزَلَ إلى روضته ، إلى خمائل الطيب ، ليرعى فى الرياض غنمه
ويقطف السوسن ، أنا لحبيبى ، وحبيبى لى . إنه يرعى غنمه بين السوسن »

— ذلك الراعى ! . . سقياً للشباب ! وأنَّى لك علمُ هذا النشيد ؟

— كانت مربِّيَتى وقد جىء بها من أرض كنعان تغنِّينى من هذه
الأناشيد حتى أرقد ، فلما كبرتُ أخبرتنى خبرَها وسمَّتْ لى صاحبها .
وها أنذا جئتك ، وكنت لا أفكر إلا فيها طولَ طريقى إليك

— إنى رهين لك بما أستطيع

— مَن شولميت ؟

— . . . .

— يا شاعرى الكريم ، صاحب النشيد الخالد أبد الآبدين ، كلمة منك واحدة : مَنْ تكون شولميت

— لك كلُّ ما شئتِ إلا سرّ النشيد

ودعا سليمان بلقيس إلى قصره الفسيح الفاخر ، حيث مُدَّت الموائدُ محمّلةً من لحوم الخراف والعجول المسمّنة والأيائل والظباء والأوزّ وأصناف المحمَّضات والثمار . وكانت صِحَافُ الأكل وآنيةُ الشرب كلها من ذهب . وقد كان فى استقبال سليمان نساء حريمه إلا زوجته بنت فرعون مصر ، فهى مستقلةٌ بقصرها القائم بإزاء قصره يسعى إليها حين يريد . وكان الحريم خليطاً من السرارى ، فيهن المؤابيَّات والعمونيات والأدوميات والصِيدونيات والحثيَّات وغيرهن ، وكلهن متطلعٌ إلى الملكة الشابة شديد الرغبة فى مقاربتها ، لولا ما يَزِينها من سَمْت الملك ولولا هيبة سليمان .

ولكن بلقيس كانت طوال الوليمة شاردةَ الفكر سابحةَ الخيال — وقد استولت على نفسها وحشةٌ ، وأحست بحاجة إلى الوحدة . وكان يزيد إحساسَها بالوحشة والحاجة إلى الوحدة وهى فى حضرة الملك الحكيم مشهدُ هذا العدد العظيم من نسائه .

***

وبقيت بلقيسُ فى أورشليم ريثما استراحت وتزود الركْب . وفى ذات يومٍ قبل أن يرتفع النهار ، وأهلُ المدينة ما يزالون فى نومهم غارقين ،

كان موكبٌ عظيم على باب صهيون يجتاز أعتابه مفارقاً مدينة داود ، والحراس ينظرون فى دهشةٍ لهذا الرحيل الباكر .

وما ارتفع النهار حتى كان ركْب بلقيس بعيداً عن أسوار المدينة العظيمة الرابضةِ العابسة كالقلعة الحصينة . ونظرت بلقيس خلفها نظرةَ المفارِق بلا عودة ، فإذا شعاعٌ من أعلى الجبل منعكسٌ من شرفات المعبد المذهّبة يمتدّ إليها ، ماضٍ فى إثرها كأنه أَثرُ الماضى ولَمْحُ الذكرى .



فهـــرس

١٩٤٤/٢/١/١١٩٢



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الثمن ٢٠ ص